برجوان

برجوان: رواية
الكاتب: محمد عبدالحميد العُرْضِي
تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 11149 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 035 - 5

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**
E_mail: bentelzayat1@gmail.com
Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات
المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم
01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / 49351

لبرجوان

الكاتب

محمد عبد الحميد العرضي

دار الزيات للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

إهداء

إلى أمي، تلك التي تعبت كثيرًا وحق لها أن تستريح.

إلى أبي، الذي علمني كل شيء وقال لي اقرأ التاريخ فقرأته والآن أكتبه.

أنتما نور العين وتاج الرأس فإليكما أهدي كتابي الأول.

محمد العرضي

❋ ❋ ❋

اعتدت في طريقي أن أنظر في وجوه الناس، أقلب عيني في اختلاف وجوههم وطباعهم. كيف خلق الله هذه الوجوه المختلفة رغم ثبات أسسها؟ كل وجه له قصة وله حياة مختلفة، لم أمتنع عن هذه العادة أبدًا بل كنت أختار أكثر الأماكن ازدحامًا وأنظر في الوجوه السعيد والحزين، المهموم والمشغول، الكبير والصغير، لكل حكاية ولكل وجه مختلف. في مكتبتي التي توارثتها أسرتنا كنت أبحث عن الوجوه أيضًا كل كتاب له وجه مختلف، كل وجه فيه من روح كاتبه. ذات يوم وجدت كتابًا قديمًا سقط بين الأرفف، كتاب صغير الحجم بغلاف أخضر وأوراق صفراء فيها رائحة الزمن وصورة التاريخ، ليس عليه عنوان أو اسم كاتب، تفحصته على مهل ونفضت التراب عن صفحاته وفتحته لأعرف عن أي شيء يتحدث .. ما قرأته جعل الدهشة تجتاح كل خلية من جسمي، فمي مفتوح، حاجبي مرفوع، لم أشعر بالوقت أو المكان، أول سطر كان ما يلي....

(إذا كنت من محبي الوجوه فهذا الكتاب لك وإن كنت ترغب في سفر طويل فالكتاب مرشدك في سفرك). وكأني وجدت كنزًا لا يقدر بثمن أخذت الكتاب وأنهيته في جلسة واحدة وأغلقته وأنا عازم على تحقيق ما فيه.

في اليوم التالي قررت السفر، جهزت حقائبي، أموالي، ملابسي، أخذت إجازة من عملي .. سخرت كل حياتي لتحقيق حلم حياتي .. أي حياة نعيشها بلا حلم نسعى إليه؛ ما هي إلا حياة مهدرة بلا شك. يكفيني إهدارًا لما فات. سوف أبدأ وسوف أسعى لحلمي. مع غروب شمس اليوم كنت في محطة القطار أستعد لركوب القطار المتجه إلى القاهرة، لم أستطع التخلص من عادتي، اخترت القطار لأرى أكبر قدر ممكن من الوجوه المختلفة لكن هذه الرحلة سوف تغير كل ما تعلمته قبل ذلك، كل انطباع أخذته، قطع شرودي صفير القطار وهو يدخل إلى المحطة بصوت عجلاته وارتفاع أصوات الناس على الرصيف كل وجه يجري ليلحق بالقطار وجه أب وجه أم وجه عامل كل وجه بقصته يجري ليلحق بالقطار. تعمدت أن أركب في عربة قطار مزدحمة رغم قدرتي على اختيار غيرها لكن كل شيء يهون في سبيل النظر إلى الوجوه.

مع تأخر الوقت وزحف الظلام على الركاب واستسلام أغلبهم للنوم أو الحديث الخافت الذي يذوب مع أصوات القطار المرتفعة أسندت رأسي على ظهر المقعد سامحًا لأنفاسي أن تخرج؛ عسى أن تهدأ نار الفضول بداخلي، غلبني النوم ولم أستفق إلا على صوت وصول القطار إلى المحطة أخذت حقيبتي ونزلت من القطار وأنا ولأول مرة في حياتي مدرك تمام الإدراك إلى أين أذهب....

على باب المحطة ركبت سيارة أجرة وأخبرت صاحبها بوجهتي، ظللت أنظر من زجاج النافذة أتأمل في القاهرة بسحرها وأضوائها المختلفة، حركة الناس المستمرة، أصواتهم العالية، وطبعًا وجوههم المختلفة. رغم الزحام المعروف عن القاهرة؛ لم تستمر رحلتي مع السيارة غير عشر دقائق، لم تطل كثيرًا ولم أشعر بها، وقفت السيارة أمام فندق متواضع في منطقة الحسين المعروفة في القاهرة، اخترت فندقًا متواضعًا يطل على المسجد الشهير والمنطقة المعروفة التي تحقق لى رغبتي الغريبة في مطالعة الوجوه، هذه المرة لن أقتصر على وجوه أناس بعينهم، ما قرأته في الكتاب فتح أمامي رغبة لا تنتهي ولن تحققها إلا منطقة الحسين

أخذ عامل الفندق حقيبتي ووضعها في الغرفة رقم سبعة، الوحيدة المتاحة والوحيدة التي تطل شرفتها على ساحة مسجد الحسين.

ارتميت على سريري ناظرًا إلى سقف الفندق مستمتعًا بأصوات الناس في الساحة واختلاط أصواتهم بين ضحك ونداء، أحاديث تحكى. قصص تبدأ وأخرى تنتهي، مددت يدي لأخرج كنزي من الحقيبة بلونه الأخضر وصفحاته الباهتة وكلماته المبهمة .. مرشدي في رحلتي التي على وشك البدء..

تسللت أشعة الشمس من نافذة غرفتي لتوقظني من نومي العميق جلست على حافة السرير لأستجمع شتات ذهني محاولًا استيعاب مكان وجودي وسبب حضوري إلى هنا، نظرة واحدة للكتاب كانت كافية لتذكيري بكل ما كان وما سيكون، قُمتُ متثاقلًا ساحبًا قدمي مع نزولي إلى ساحة الحسين لأتناول وجبة إفطاري، مستمتعًا بكوب الشاي أثناء جلوسي على أحد المقاهي، مع شرود ذهني جاء صوت غريب

- من القاهرة؟

- لا.

- أتسمح بالجلوس؟

– على مضض أجبته، تفضل.

– ادعى علي وأنا أعمل هنا في منطقة الحسين، تبدو غريبًا، لم أرك من قبل.

– نعم جئت في زيارة لأحد أقاربي.

– يسكن هنا؟

– قلت محاولًا إنهاء الحديث، لا إنه مريض في المشفى الجامعي.

– تمنى له الشفاء وقام مسرعًا.

طال جلوسي على المقهى مستمتعًا بحركة الناس الدائبة واختلاف وجوه الزائرين مع اختلاف بلدانهم، مع أذان الظهر قُمتُ إلى داخل المسجد، بعد الصلاة ومع دخولي لحجرة القبر والزيارة كما اعتاد الناس أن يفعلوا وقفت متأملًا العمامة الخضراء الماثلة بالداخل وازدحام الناس حولها واختلاف رغباتهم؛ فهذا يدعي ويطلب مالًا وهذا صحةً، قصص كثيرة تحكيها الوجوه.

همس صوت في أذني (حافظ على الكتاب؛ ففيه نجاح رحلتك)

التفت لأبحث عن المتكلم، مع كثرة الناس لم أستطع التعرف على أحد، الكل يدعو ويتمتم، الكل مشغول والوجوه مختلفة، الوجوه شاردة

إلا وجه واحد ينظر إليَّ مباشرة في عيني تمامًا، عيون زرقاء .. شعر أبيض كثيف يتجمع حول مقدمة رأسه ويتدلى حتى كتفيه .. لحية كثيفة، تجاعيد واضحة، جلباب مختلف، كأنه أحد الفلاحين أو أبناء الصعيد، حاولت الاقتراب أكثر لكن موجة من حركات الناس المتدافعة حالت بيني وبين الناظر إليَّ، انشغلت للحظة ثم ماذا؟ ثم اختفى، أين ذهب؟ بحثت كالمجنون يمينًا ويسارًا أدفع هذا وأحرك ذاك، أمشي والتفت أخرج وأدخل وكأنه لم يوجد قط، أكان خيالًا؟ لا، شاهدته فعلًا، نظر إليَّ.

لماذا هذا بالتحديد؟ قد يكون رجلًا عاديًّا زائرًا، قد يكون الصوت لأحد آخر، لماذا شككت في أن الصوت لهذا الشخص بالتحديد؟

ولماذا أحافظ على الكتاب؟ ومن أي شيء؟

طوفان من الأسئلة اجتاح عقلي المتعب بالفعل من كثرة ما به من أسئلة، جلست على أرض المسجد متعبًا ومع برودة الهواء في المسجد تمددت نائمًا. لم أدر كم مضى من الوقت فلم يوقظني إلا أذان العصر بصوت جميل، كأنه ينادي من عالم آخر، قُمتُ وتوضأت وبعد الانتهاء من الصلاة أسندت ظهري على أحد أعمدة المسجد أستمتع بنسمات

الهواء المتتالية القادمة من باب المسجد فتعطي راحة للجسم وأجواء المسجد تعطي راحة للروح.

قُمتُ صارخًا، اللعنة أين ذهب؟ ظللت أصرخ وأنادي أين ذهب؟ الغريب أن أحدًا لم يلتفت إليَّ، ربما ظنوني مجذوبًا كهؤلاء المنتشرين حول المكان، لم يعِرني أحد انتباهًا، الكل اعتقد أنني أهذي، لكنني كنت أبكي فعلًا فقد ضاع الكتاب، انتهت رحلتي قبل أن تبدأ.

تائهًا خرجت من المسجد لا أدري أين أذهب وماذا أفعل وكأن كل مكان قد اختفى من عقلي أو أن الأرض طويت طيًّا فلا مكان أذهب إليه ولا أحد أقص عليه ما حدث.

لمع ذهني، المقهى، فذهبت إليه وجلست على أحد مقاعده أندب حظي التعس وأنعي رحلتي المنتهية قبل بدئها وأسوأ ما يمر به الإنسان ضياع حلمه وانكسار آماله، ظللت جالسًا شارد الذهن أنظر إلى المسجد وأتفحص الوجوه لكن هذه المرة أبحث عن وجه واحد حفرت ملامحه في ذهني، عيون زرقاء واسعة، وجسد ضخم، لحية كثيفة، شعر يتدلى حتى كتفيه، وصوت مميز، أطالع كل وجه يمر حتى صار يخيل إليَّ أني أراه في كل رجل، اجتاح اليأس كل خلية من جسدي ومع اختلاط

أصوات الناس ببعضهم وحركتهم المستمرة وأصوات الملاعق المميزة مع أكواب الشاي وعامل القهوة يمر ذات اليمين وذات الشمال، وفود من جنسيات مختلفة تمشي مع بعضهم يشاهدون المنطقة المعروفة بتاريخها الطويل، قطع عليَّ كل هذا صوت سمعته من قبل...

- أراك أكثر شرودًا اليوم.

رفعت رأسي إلى مصدر الصوت كان (علي)، ذلك الشاب الذي تحدث معي في الصباح.

- نعم أعاني من الشرود مؤخرًا.

- أهذه عادتك؟

- الوجوه؟ نعم اعتدت أن أنظر إلى كل وجه.

- لا كنت أسألك عن الشرود.

- لا يهم لن تختلف النتيجة كثيرًا في الأخير الكل صفر.

- أنت تتحدث بالألغاز.

فرت دمعة من محبسها قاومتها طويلًا منذ خروجي من المسجد وكأن مجرد وجود المستمع يفتح أبواب القلوب.

تعاطف علي مع دموعي وسحب كرسيًّا وجلس بجواري.

حكيت له كل ما حدث بداية بالكتاب وانتهاء بضياعه.

تعجب علي وأظهر تعجبه بضحكة عالية ثم اقترح علي أن أذهب إلى الفندق لأستريح مع وعد بأن يزورني ونجد حلًّا لمشكلتي .. قُمتُ متثاقلًا ومع وصولي لسريري ألقيت نفسي عليه وزحف النوم على عيني، تعددت الرؤى والأحلام كلها تدور حول نفس الصوت، ينادي حافظ على الكتاب ففيه نجاح رحلتك، نفس الوجه الغريب بعينه الزرقاء الواسعة وصوته المميز الجهوري وأنا أنادي من أنت، لقد ضاع الكتاب، لم أستطع الحفاظ عليه يومًا واحدًا وأفسدت رحلتي..

لم أشعر إلا بيد تحركني أفقت واعتدلت جالسًا معتذرًا عن تشتتي متعجبًا من دخوله لغرفتي!

- ضحك كعادته متجاهلًا تعجبي وقال: إلى الآن لم تخبرني اسمك.

- رددت مبتسمًا عزيز، اسمي عزيز.

لاحت على وجهه ابتسامة غامضة: نعم نعم كان لا بد أن أعرف.

لم أهتم؛ بل قُمتُ وغسلت وجهي، بدلت ملابسي، كان قد غادر الغرفة، نزلت إلى بهو الفندق لأجده جالسًا مع فتاة يتهامسان باهتمام، اقتربت منهما ملقيًا عليهما السلام فانتبها لوجودي.

- عزيز هذه أختي فاطمة، مرشدة سياحية.

- ضاحكًا، وهذا عزيز غريب الأطوار مثلك.

مددت يدي مصافحًا غير مهتم بالنظر إلى ملامحها؛ فكل ما يشغلني هو الخروج ومحاولة الوصول لسارق الكتاب، دعانا علي إلى الخروج سويًّا إلى ساحة الحسين للجلوس على المقهى الذي تقابلنا فيه لأول مرة، وهناك شاهدتها لأول مرة بأنفها المستدق الصغير، عينيها الزرقاوين، ثغرها الصغير، وكأني أكتشف عالمًا جديدًا أنساني للحظات فاجعة كتابي المفقود، هذا الجمال الساحر الذي يذهب العقل في ظرف غير هذا رغم قوة سحره وتأثير سلطانه، وللجمال تأثير أينما حل، وفي أي وقت كان، للحظات قررت تجاهل بحثي عن الكتاب واسترجعت عادتي في النظر إلى الوجوه فليس بمعتاد أن ترى صفحة من النيل الرائق على وجهٍ بشري بشكل عام فما بالنا بانعكاس زرقة النيل على وجه أنثى، حتمًا إن للأشياء من حولنا انعكاسات على أرواحنا وهذه الفتاة حازت انعكاس النيل بخفته وزرقته فكانت خفيفة الروح ساحرة الجمال .. أجمل ما في ظهور هذه الفتاة أن ظهورها كان في القاهرة التي تضيف ثقلًا على قلبك

بزحامها وكثرة الحركة بها؛ فتأتي هذه الفتاة فتحيل الثقل إلى خفة، وقبح الزحام إلى جمال.

كنا نجلس سويًّا على المقهى وقد زحف الليل على سماء منطقة الحسين وأوقفت زحفه أضواء المحلات المتناثرة مع أصوات الأكواب ونفخ الناس لدخانهم غير مبالين بشيء، وأمامي كانت خفيفة الروح تطالع شاشة هاتفها المحمول وأخوها يجلس بجواري يطالع سماء ساحة الحسين، أدار عامل المقهى المذياع لينطلق صوت أم كلثوم في المكان وكأنها تعرف ما يدور بخاطري فكانت تنشد بصوتها العذب (شيء خلى الدنيا زهور، على طول، وشموع على طول).

دندنت مع صوت أم كلثوم فرفعت رأسها من هاتفها لتنظر إليَّ مبتسمة قائلة:

- يبدو أن كلام أخي عنك صحيح.
- أي كلام؟
- أنك غريب الأطوار.
- مقهقها قُلتُ مع أم كلثوم لا مجال لغرابة الأطوار.

تدخل علي في الحديث

- غرابة أطواره تظهر في النهار وفقط مع شرود ذهنه.

- ضحكت قائلة المكان هنا أسسه غريبو الأطوار من بدايته.

- قلت أي مكان؟

قالت: القاهرة كلها.

- رددت عليها بأنني لا أفهم ما تعنيه.

فقالت: اسمك عزيز من المفترض أن تعرف أن أباك هو من بنى هذا المكان.

- أبي لم يأت إلى القاهرة أصلًا.

- بسخرية قالت: هو لم يأتِ بل بناها.

ثم بجدية قالت: دعنا نأخذ جولة في المكان إذا كنت مهتمًا بمعرفة الحقيقة.

- الحقيقة أنني مهتم بشيء آخر.

- الكتاب؟

قد تجد ما فيه في شوارع المحروسة.

أو قد تجد الشيخ صاحب العيون الزرقاء، من يدري؟! دعنا نتحرك فالحركة سبيل الباحثين أما الساكن فيعلوه التراب حتى يدفن، قم يا عزيز..

تعللت بالنوم وبثقل الجسم على وعد بالخروج غدًا. بدا عليهما الاستياء وتجاهلت ما شعرت به. بعد قليل قُمتُ مودعًا وانصرفت إلى الفندق تاركًا علي وأخته يودعاني بنظراتهما.

في غرفتي، بدلت ملابسي وتمددت على سريري أنظر إلى سقف غرفتي وأتساءل هل كنت محقًّا برحلتي؟

هل تستحق كل هذا المجهود؟ لماذا أستمر؟ وعن أي شيء أبحث؟

يكفي ما حدث ويكفيني بحثًا عن الأوهام، صرت أضحوكة المجالس وتندر الأغراب، غدًا سأغادر الفندق وأعود إلى بيتي.

قُمتُ معتدلًا لأجهز حقيبتي وملابسي لليوم التالي وبينما أنا منشغل؛ سمعت صوت هاتفي، رددت مستفهمًا عن المتصل:

- لم تعرفني؟
- من أنت؟
- أنا فاطمة.
- من فاطمة؟
- ونسيت اسمي أيضا!

ندمت على حماقتي فقد كانت هي خفيفة الروح بصوتها المميز وتلك البحة التي تجعلك تود أن تسمع منه المزيد، كيف فاتني هذا الصوت؟

- حاولت تدارك الموقف مجيبًا لا لا بالطبع أتذكر، فقط كنت مشغولًا بتجهيز حقائبي.

- انتظر غدًا سترى ما يسرك، فقط تعال إلى المقهى في الصباح.

وعدتها بالحضور وعدت إلى سريري مستلقيًا مكررًا نفس أسئلتي على نفسي، ثم توصلت إلى الإجابة، يوم إضافي لا يضر فلأجعله الختام، من يدري؟! ربما أصل إلى شيء وإن لم أصل تكفيني صحبة فاطمة.

لأول مرة منذ قدومي للقاهرة أنام بهذا العمق منتظرًا طلوع الشمس؛ لأراها، أعني شمسي الأخرى، صاحبة العيون الزرقاء. قُمتُ مستيقظًا نشيطًا جلست على المقهى مع الصباح الباكر محتسيًا الشاي بأعواد النعناع وحركة الناس البادئة في أعمالها، منشغلًا بقراءة إحدى الجرائد وصوت المذياع يعلو بآيات من القرآن كعادة أصحاب المحلات عند بداية افتتاحهم ليومهم، ومع انشغالي عن كل شيء شعرت بيد تربت على كتفي.

- صباح الخير.

- صباح الورد،

أذابتني ابتسامتها،

- أين علي؟

- لن يأتي اليوم؛ فاليوم لي وكما وعدتك سترى ما يسرك.

- حسنًا، أولًا اجلسي وتناولي الإفطار.

- لا أمامنا يوم طويل هيا لنقم.

- وضعت حساب الشاي على الطاولة وقمت معها منتشيًا بمشيي إلى جوارها، ورائحتها العطرة تحتل أنفي وتصل إلى قلبي.

ثم تذكرت فسألتها كيف لأبي أن يبني القاهرة؟

- إن اسمك عزيز، هو اسم ابن المعز الفاطمي مؤسس القاهرة، هل سمعت يومًا بتناسخ الأرواح؟

- رددت الكلمة، تناسخ الأرواح؟!

- نعم تناسخ الأرواح، تعني رجوع الروح إلى الحياة لكن في جسد آخر.

- لم أسمع بهذا من قبل!

- يعني أن أرواح الأقدمين تعود مرة أخرى في أجسادنا، الروح تتناقل ولا تنتهي.

لم أهتم بكلامها واستمر المشي جنبًا إلى جنب من ساحة الحسين إلى الجامع الأزهر ثم توقفت وقالت: انظر إلى جهة المسجد، هنا كان قصر جدي.

- لم أفهم ما تقصدين!.

- انظر في عيني جيدًا.

نظرت طويلًا فغرقت في جمال زرقتها، ثم تحولت زرقة عينها إلى موج يتلاطم وتغير المكان.

لا سيارات لا أشخاص .. أين أنا؟

أين المقهى؟ والناس؟

تغير المكان، رأيت قصرًا عن يمينه الحسين، وعن يساره خان الخليلي، من الجهة الأخرى قصر آخر، جنود بلباسهم القديم يتحركون يمينًا ويسارًا .. حديقة كبيرة بأشجار كثيرة.

ما هذا المكان؟ أين أنا؟ كيف جئت إلى هنا؟

سيل من الأسئلة ينهال على عقلي، وما من مجيب.

استدرت إلى فاطمة الواقفة بجواري:

- أين نحن؟

– أمام قصر المعز والعزيز، من هنا بدأت القاهرة.

– حسنًا، لكن كيف جئنا إلى هنا؟

– هذا ليس السؤال الصحيح لكن لماذا جئنا إلى هنا؟

لماذا وكيف؟ عقلي سيجن.

– ألست تبحث عن صاحب العيون الزرقاء، ستراه قريبًا؛ لكن أولًا اعرف من أين بدأ.

– تعال لندخل، لا تخف لن يرانا أحد.

دخلنا من الباب الذهبي الكبير، لم أر في حياتي مثل هذا الجمال من قبل، أعمدة رخامية متناثرة، نافورات من الرخام وجدران مطعمة بالذهب وكرسي من الذهب على مكان عال أمامه حارسان من أصحاب البشرة السمراء عليهما ملامح القوة وفي أيديهما سيوف لامعة، ستائر موشحة بالذهب، على الكرسي يجلس رجل شعره أبيض، عينه زرقاء، ملابسه يبدو عليها الاختلاف، لا تخلو من ذهب وألوان جاذبة، يرتدي قفازًا ويجلس متكئًا يطالع في الجالسين من حوله بنظرة بها كثير من الكبر وكثير من الاهتمام، صوته جهوري يخضع من يسمعه، ويقطع المجلس طفل صغير ينادي:

– أبي أبي، فينهره قائلًا ليس الآن، احملوه إلى الداخل، ويصرخ الطفل باكيًا.

همست لفاطمة من هذا، وأين نحن؟

– هذا العزيز وهذا ابنه المنصور.

دعنا نرجع، يكفي ما شاهدته.

في لحظة وجدت نفسي واقفًا أمام المسجد الأزهر، مطالعًا منطقة الحسين من الجهة الأخرى، والسيارات تذهب وتجيء، وكأن ما حدث مجرد خيال عابر، أما فاطمة فلم أعرف أين ذهبت ولا ما حدث، أكان حقيقة أم خيالًا؟!

وقفت تائهًا للحظات غير مدرك ما حدث، مطالعًا يمينًا ويسارًا، وناظرًا إلى المسجد الأزهر من خلفي، وأخيرًا قررت الذهاب إلى الفندق؛ فأنا غير قادر على استيعاب كل هذه الأحداث المتتالية، لا أدري كيف استطعت الوصول، لم أشعر بنفسي إلا وأنا ملقى على سريري، ناظرًا إلى السقف متسائلًا، من هذه الفتاة؟ ماذا حدث؟

أفقت على طرقات متتالية خافتة على باب غرفتي، قُمتُ مترددًا خائفًا بصوت مرتعش سألت:

– من الطارق؟

– أنا فاطمة.

ويحي ماذا تريد مني؟

سكت للحظات ثم قررت أن أفتح الباب.

– تفضلي بالدخول.

دخلت بخفة كأنها تزحف، ثم جلست على أحد الكراسي العتيقة، الموجود في ركن الغرفة، واضعة قدمًا فوق أخرى مبتسمة وهي تنظر إليَّ

– ما بك؟ خائف مني

كاذبًا أجبت: لا ولم أخاف؟

– لو كنت مكانك لخفت منك، لا تهرب من خوفك وتعامل ببشريتك، لا أحد من البشر مضطر لأن ينكر مشاعره وكأنه الوحيد الذي يملك هذا النوع من المشاعر.

قاطعتها قائلًا: دعينا من فلسفتك الزائدة، الأمر بدا غريبًا، لا أعلم ما حدث وأين ذهبت؟

– ذهبت لترى أجدادك الأوائل بناة القاهرة المحروسة العظماء، الذين لا تعرف عنهم شيئًا.

– وما علاقتي بكل ذلك؟ ولماذا أنا؟

– أنت من تم اختيارك، وأنت من جئت باحثًا، لكن دعني أسألك، ألم تستمتع بما حدث؟ أنت ترى ما لم يرَه أحد من الموجودين الآن، أنت دخلت قصر العزيز بالله، حاكم مصر، والقصر ليس موجودًا الآن، أنت رأيت العزيز وجهًا لوجه وهو شرف يتمناه كل مصري.

– أنت لا تفهمين، ما فائدة أن أراه، وأي شرف في رؤية الموتى؟!

– من قال إنهم موتى؟

اتسعت حدقتا عيني غير مستوعب ما تقول، إنهم موتى منذ قرون.

– ألم أسألك عن تناسخ الأرواح؟ أن تنتقل روح أحد من القدامى إلى روح أحد من الحاضرين.

– أتعنين أن روحي هي لأحد من القدامى؟

– بالتأكيد.

– وأنت؟

– نعم أنا أيضًا.

– روح من؟

– أنت دائمًا تتعجل الأمور اصبر وتعلم. راقب وحلل ما تراه؛ ساعتها ستصل إلى نتيجة.

- والكتاب؟

- ستصل إلى الكتاب وما هو أبعد من الكتاب؟

- ماذا تعنين؟

- قلت لك لا تتعجل وراقب.

أتريد الذهاب إلى هناك ثانية؟

- لا.

- أريد أن أرتاح.

- هذا ما يتمناه الجميع لكن قليل من يحققه.

- دعيني وحدي.

- حسنًا، لك ما شئت أنت تعرف أين تجدني.

قامت بخفتها المعهودة مغلقة الباب خلفها، تاركة عقلي المشتت وقلبي المعلق بها خلف الباب، الآن بالفعل، ماذا أريد؟ هل يستحق كتاب كل هذا التعب؟ كل هذه الغرابة؟

راجعت نفسي الكتاب نفسه، لا يستحق، لكن الوصول للحلم الشخصي يستحق، رغم أن حلمي قد لا يبدو ذا قيمة عند غيري؛ لكنه يبقى حلمي أنا وهدفي الذي أسعى إليه، لن أظل ساكنًا بعد الآن سئمت

من الركود كسفينة ملقاة على شاطئ بحر، والسفن لم تصنع لتبقى؛ بل صنعت لتبحر، وكما قالت فاطمة، الساكن يعلوه التراب حتى يدفن، وأنا لن أموت كمًّا مهملًا أو ساكنًا صدئًا هكذا؛ بل سأتحرك وأكتشف وأتعلم وأنقل ما تعلمته لأولادي وللناس أجمعين.

تذكرت أن هدفي الأكبر كان دائمًا أن أكون مؤثرًا، وأنا لست عالمًا فأخترع شيئًا مؤثرًا، ولست ذا سلطة فأصنع قرارًا مؤثرًا؛ لكني سأصنع تأثيري بنفسي أينما حللت وأينما ذهبت.

قررت النزول لساحة الفندق لتناول الغداء عازمًا على خوض مغامرتي كاملة كما هي، وليكن مايكون.

في بهو الفندق جلست على مائدة صغيرة أتناول طعامي بنهم منشغلًا بالتهام قطعة اللحم والحماس يعصف بكل ذرة من خلايا جسدي مستعجلًا الانتهاء حتى أعود إلى فاطمة وأكمل ما بدأته.

بين فينة وأخرى كنت أطَّلع في حركة الناس خارج الفندق من خلال الزجاج الفاصل بين البهو والشارع المزدحم، ولما كنت منهمكًا لمحت وجهًا مألوفًا لي مر بسرعة خاطفة ناظرًا إليَّ بابتسامة ذات معنى.

إنه هو، صاحب العيون الزرقاء بلحيته وقامته الطويلة، قُمتُ مسرعًا تاركًا طعامي على الطاولة مهرولًا إلى الشارع وأنظر يمينًا ويسارًا وأتحرك في نفس الاتجاه الذي رأيته يذهب إليه، ظللت أجري وأنظر في الوجوه أبحث عنه علَّني أجده، لكن كالعادة لا أحد، وكأنه ذاب في الأرض أو طار في السماء.

لكن وجدت نفسي أمام المقهى، وفاطمة تجلس كعادتها واضعة قدمًا فوق أخرى تنظر إليَّ مبتسمة، لوحت إليَّ بيدها أن أقبِلْ.

هذه المرة توجهت إليها بكامل إرادتي مدركًا ما أنا مقبل عليه، ألقيت عليها السلام.

- هل فكرت؟

- نعم، سوف أكمل.

- حسنًا.

- لكن لقد رأيت الرجل، دعينا نبحث عنه أولًا.

- لا تهتم بالرجل، تعال معي وثق بي، لا تخف.

- لماذا أثق بك؟

- لأنك لا تملك ما تخسره، ليس أمامك حل آخر.

- حسنًا، دعينا نذهب.

- جلست أمامها، نظرت إلى عينها بزرقتها السماوية الساحرة وموجها العاتي، ثم تغير الزمان كالمرة الأولى.

هذه المرة ليس القصر؛ المنطقة بأكملها مختلفة تمام الاختلاف، وأنا أيضًا مختلف، رغبتي متزايدة في الاكتشاف ومعرفة المزيد، تحررت من قيودي ودهشتي وقررت التجول في المكان.

القصر كما هو بارتفاعه الشاهق وأسواره العالية، الجنود بوقوفهم على الأسوار، اتساع الشارع بين القصرين، الحانات مشغولة بأهلها كأنها خلية من النحل، الحانة الأولى يقف صاحبها على بابها يبيع أقمشة زاهية الألوان والناس تقف حوله تسأله عن الأسعار، والأخرى تبيع أنواعًا من الزجاج الملون بأشكال جميلة تسحر العين برؤيتها، الناس بسطاء، تبدو عليهم ملامح السعادة، الكل يتحرك بنشاط يأخذ حاجته ويمضي، وصاحب الحانة يأخذ دنانيره ويقبلها، مشيت قليلًا وسط الجموع، مستمتعًا بجمال المنظر، متجهًا إلى القصر، حديقة واسعة بها حيوانات مختلفة وطاووس يقف هنا وطاووس آخر يقف هناك، صوت بلبل يغرد وأسد يزأر، نافورة وسط الحديقة وصوت الماء فيها يمتع الآذان،

وأصوات ضحكات لفتيات يركضن بين الأشجار، توجهت نحو الصوت لأرى بعض الفتيات بأثواب حريرية بين أصفر وبنفسجي، يجرين بخفة ويتضاحكن، إحداهن جالسة على منصة عالية تنظر إليهن مستمتعة بلهوهن، هممت بالصعود إلى تلك الجالسة على المنصة؛ لكن صوتًا جهوريًّا قطع على الفتيات لعبهن وجعلهن يرجعن إلى المنصة ويختبئن محتميات بالجالسة في الأعلى.

صاح الصوت: الوزير يعقوب ابن كلس يطلب الإذن بالدخول.

دخل رجل عجوز، طويل، مهيب، ذو لحية، يرتدي عمامة تزينها الجواهر، وثيابًا سوداء بأوشحة من الفضة.

تبعته إلى داخل القصر فوجدته يدخل على رجل يجلس على عرش من الذهب، فقبل الأرض ثم أخبره باكتمال السفن.

قام العزيز إليه ممسكًا بيده يمشيان إلى الحديقة في الخارج، اقتربت منهما لأستمع.

- أنا قلق يا يعقوب.

- مم يا مولاي؟

- قلق على ست الملك والمنصور.

- أدام الله بقاءك.

- وأدام الله وجودك يا وزيري الأمين.

انطلق العزيز ويعقوب يمشيان جنبًا إلى جنب، ورغم ذلك كان يعقوب يصر على أن يتأخر قليلًا عن العزيز في حين كان الأخير حريصًا على أن يبطئ من خطواته احترامًا ليعقوب.

كنت حريصًا على الاقتراب منهما، محاولًا فهم ما يتكلمان فيه، فاجأني أنهما يتحدثان في العلوم الشرعية، ويقرأ كل منهما جزءًا من القرآن ثم يكمل الثاني ما بدأه الأول .. بعد حين تحدثا عن إقامة الولائم، وهنأ يعقوب مولاه العزيز بمناسبة قدوم شهر رمضان وما يعقبه من تجهيزات، لم أفهم أي تجهيز يتحدثان عنه.

مع قدوم الليل، خرج العزيز في زي أبيض يركب حصانًا أبيض، خرج من قصره يتبعه حشد كبير من الجنود، أجواء احتفالية تشبه ما نعيشه في أيامنا مع الاختلاف، الاحتفال هنا يبدأ من العزيز نفسه، مرورًا بكل فرد في الشارع، شعرت أن الجدران نفسها فرحة بقدوم شهر رمضان، الحوانيت بلا أبواب، مجرد شبكة خفيفة توضع على الباب توحي بقوة الأمن في البلاد، تحرك الحشد حتى وصل إلى الجامع الأزهر

فنزل العزيز برشاقة عن فرسه ثم دخل إلى المسجد، قام أحد الغلمان بحمل حذائه ووقف الإمام مستقبلًا العزيز، فاستقبله بكيس من النقود وهلل الناس مع تقبيله للمصحف الشريف، جلس العزيز في الساحة الكبيرة بالمسجد الأزهر، والكل في صوت واحد تلهج ألسنتهم بالدعاء والأذكار .. إلى أن قام العزيز فقام الجميع منصرفين إلى بيوتهم.

في اليوم التالي أقام العزيز وليمة لم أرَ مثلها من قبل في حديقة القصر أصناف من الطعام، في حديقة قصره يجلس العزيز وعن يمينه يجلس يعقوب، الكل يبتسم ويتحدث، والطعام يوضع أمامهم بأشكاله المختلفة، ثم بعض الفواكه والحلوى، في حين تناثرت الطواويس يمينًا ويسارًا بألوانها الجميلة وأصوات طيور تغرد بين حين وآخر، رائحة الياسمين تملأ الأجواء، ورطوبة العشب تشعر به تحت أقدامك، ثم قام العزيز واقفًا؛ فسكت الجميع، وكفوا أيديهم عن الطعام فقال: من يسمعنا شعرًا الليلة، قام شاب لم أتبين ملامحه من الظلام فقال: أذكر هنا قول حسان بن ثابت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم .. فردد الجميع عليه الصلاة والسلام.

وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني وَأجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ
خلقتَ مبرءًا منْ كلّ عـــيبٍ كأنكَ قدْ خلقتَ كما تشاءُ

صفق العزيز ضاحكًا وقال أحسنت يا برجوان، مبادر كعادتك، لك مني ألف دينار، فقام الشاب إليه وقبل يديه ومع انعكاس نور القناديل على وجه الشاب كانت الصاعقة .. لقد كان الشاب أنا، كأنني أنظر في المرآة، ذهب الذهول بعقلي كل مذهب وقررت الاقتراب منه أكثر إلا أن فاطمة ظهرت من العدم قائلة: يكفي، لا يمكن أن نظل هنا كل هذه المدة، وضعت يدها على كتفي فوجدت نفسي على المقهى مرة أخرى.

- لماذا عدنا الآن؟

- اهدأ لا نستطيع أن نجلس طوال الوقت هناك، الانتقال له قواعده.

- لقد رأيتني هناك، شاهدت نفسي واقفًا.

كنت أصرخ وأنا أتحدث، أتكلم باندفاع غير مبال بنظرات الناس من حولي لصراخي وتعجبهم لذلك الرجل الذي يصرخ ويضرب بيده على الطاولة.

أخذت فاطمة بيدي وقالت دعنا نذهب من هنا ثم انتزعتني انتزاعًا من مقعدي على الطاولة.

قمت معها وأنا أكاد أجن مما رأيت، مشينا كثيرًا وأنا لا أستطيع الكلام، أسئلة تتدافع إلى رأسي كلها تنهش في خلايا عقلي، وهي تمشي معي وكأن ما حدث أمر عادي، لا أدري كيف وصلنا إلى الفندق، جلسنا على طاولة متقابلين، بدأت أخاف من النظر إلى عينها بعدما كانت عينها هي الدنيا بأكملها، لاحظت أنني أتعمد النظر بعيدًا فأمسكت بيدي، أناملها الناعمة تمسك بأناملي، لأول مرة ألاحظ جمال أصابع يديها بطولها الفاتن ونعومتها الساحرة وبرودتها التي لا تنتهي .

انتبهت لهذه النقطة منذ التقينا، ولم أشعر بدفء يديها يومًا، قطعت أفكاري بحديثها:

- تريد أن تفهم؟

- بالتأكيد أكاد أجن اشرحي ما حدث، كيف رأيتُني؟ كيف كنتُ موجودًا هناك؟

- ألا تتذكر ما قُلته لك عن تناسخ الأرواح؟

- نعم ذكرتِه لي من قبل.

– كل منا كان موجودًا من قبل باسم غير الاسم؛ لكنها نفس الروح، في كل زمن ستكون موجودًا باسم جديد وطباع جديدة، ثم ابتسمت بغمزة ذات معنى خاتمة كلامها .. ووجوه جديدة.

– وجوه؟

– نعم، لكن لا بد أولًا أن تقابل أستاذ الوجوه المختلفة.

– أي أستاذ؟

– ستعلم قريبًا، لا تتعجل، لكن لا بد أن تعلم أننا لا نستطيع البقاء هناك مدة طويلة فقط انظر وشاهد لتعلم من كنت.

– حسنًا، وماذا عن الكتاب؟

– الكتاب أيضًا ينتقل من زمن إلى آخر لا يفهم ما فيه إلا هؤلاء المهتمين بوجوه البشر، لكن هل تذكر ما في الكتاب؟

– نعم بعضه ما يزال عالقًا في ذهني.

– جميل، الآن اذهب إلى غرفتك واسترح؛ فقد يأتي إليك أخي علي في الصباح.

– أهو يعلم ما يحدث؟

– ضاحكة، ألم أقل لك كل منا كان موجودًا في زمن آخر من قبل؟!، ثم لماذا التعجل؟!، اصبر وسنصل جميعًا إلى ما نريد.

- جميعًا؟

- بالتأكيد لكل منا هدفه الذي يسعى إليه.

- وما هدفكم؟

- ستعرف قريبًا، لا تتعجل.

- ما الذي يضمن لي أنني لن أتعرض للأذى؟

- ليس هناك ضمان، فقط حدسك وغريزتك، إن شئت أوقفت كل شيء، وإن شئت أكملت ما بدأته، ولأنك من أتيت إليَّ اليوم في المقهى فبالتأكيد تريد أن تكمل ما بدأته؛ فلا تتعجل واعلم أن التعجل يفسد الأهداف.

قالت جملتها وقامت واقفة متجهة إلى باب الفندق، قمت وتبعتها، لكن كما توقعت، ذابت بين البشر.

صعدت إلى غرفتي وأنا غير قادر على تحريك قدمي، زحفت إلى غرفتي، أدفع نفسي للوصول إلى السرير؛ فقد كان هو أقصى آمالي بعد ما رأيته بعيني هذا اليوم.

بدلت ملابسي، وارتميت على السرير، في ثوان كنت أغط في نوم عميق.

أحلام متعددة، صور ووجوه تتلاحق أمام عيني، وجه العزيز ويعقوب وأنا أو برجوان كما نادوني، ثم بعدي حين يظهر وجه فاطمة ويزيحه وجه الرجل ذي العيون الزرقاء.

قُمتُ أكثر من مرة من نومي أشرب قدرًا من الماء ثم أعاود النوم فتأتيني الأحلام مرة أخرى، ويزداد عليها بقع دم تظهر كلما أغمضت عيني.

ويحي، ماذا فعلت بنفسي؟ أبدلًا من أن أحكي لأولادي وللناس كيف حققت أهدافي وتركت أثرًا بين الناس؛ أموت بين ليلة وضحاها.

قُمتُ، توضأت وجلست على سجادة الصلاة أنظر إلى مئذنة مسجد الحسين ورفعت يدي للسماء قائلًا:

يا جبار السموات والأرض، رحماك، أفي مثل غمضة العين يبدل الحال غير الحال؟ فيصبح الأمل سرابًا؟ وتصبح الحقيقة خيالًا؟ دعوت الله كثيرًا أن يحفظني ويجعلني أصل إلى هدفي بلا ضرر في ديني أو أذى في بدني .. ونسيت أن أدعو بألا يصيبني ضرر في عقلي، رغم أنه أشد ضررًا من أذى البدن .

هدأت نفسي قليلًا فقُمتُ إلى سريري واستلقيت عليه، وهذه المرة لم أرَ أي وجه، نمت كما لم أنم من قبل، ولأول مرة منذ قدومي للقاهرة

المحروسة أنام ملء عيني، حتى إنني لم أسمع أذان الفجر .. لا أدري كم مر عليَّ من الوقت نائمًا؛ لكن لما استيقظت وجدت الشمس تقتحم غرفتي بكامل أشعتها الذهبية فأحالتها إلى دفء زائد، قمت متثاقلًا، غسلت وجهي وبدلت ملابسي ونزلت إلى بهو الفندق، وجدتهما جالسين ينظران يمينًا ويسارًا وعلي ينظر في ساعته وبمجرد أن رأتني فاطمة لمست يد أخيها مشيرة برأسها تجاهي؛ فتنفس مرتاحًا وأسند ظهره إلى مقعده.

ألقيت عليهما التحية، سحبت كرسيًا وجلست بجوارهما.

– بادرني علي بسؤاله هل نمت جيدًا؟

هذه المرة قررت تغيير المعتاد.

– نعم جيدًا جدًّا.

– حسنًا، دعنا نذهب.

– إلى أين؟

– إلى العزيز ويعقوب.

– لا، لا أريد اليوم.

– راقبت اتساع حدقة أعينهما واندهاشهما، سكتا قليلًا غير مقتنعين بالرد.

- لماذا؟

- ليس لي رغبة، مللت الذهاب هناك بلا طائل، ثم ماذا أجني من رؤيتي لما مضى؟!

- لكن ليس هذا ردك بالأمس، وليس هذا ما فعلته فيما فات.

- سمعت يومًا حكمة أعجبتني، ما فات مات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها.

سقط في أيديهما وجلسا صامتين قليلًا حتى قُمتُ من مكاني وقررت السير تاركًا إياهما جالسين يتبعاني بنظراتهما.

قررت اليوم المشي في المنطقة، توجهت إلى خان الخليلي، فشارع المعز، مسجد الأقمر، الحانات.

هذه المرة رؤيتي مختلفة، رأيت نفس المكان لكن بأشخاص مختلفين، بعض هذه الأماكن لم تكن موجودة بالطبع، لكن صرت أعلم كيف كانت الناس تحيا في هذا المكان، أخذتني قدمي يمينًا ويسارًا أشاهد الناس والتغير الحادث، دخلت زقاقًا جانبيًّا كتب على بدايته حارة برجوان.

وقفت طويلًا أمام الاسم، بدا المكان غير مألوف لي، لم أشاهده في زيارتي السابقة مع فاطمة، إلا أن الاسم كان يعني الكثير.

إذا كان اسم برجوان وضع على رأس شارع ما؛ فهذا يعني أن برجوان كان شخصًا ذا قيمة.

لكن أي قيمة لذاك الشاب الذي قام أمام العزيز منشدًا بيتين من الشعر!.

لم أعلم إذا كان الصواب أن أعود إلى علي وفاطمة ومحاولة معرفة ماحصل لبرجوان؟ أم أتجاهل ما رأيته وأيًّا ما كان برجوان فإنه قد صار من الماضي.

وقفت متأملًا في الحارة الصغيرة بجدرانها، رغم بساطتها وصغرها؛ لكن كان لوجود اسمي سابقًا وقع في نفسي.

جاءني صوت من الخلف .. الفضول يا صديقي هو من جاء بك والفضول يا صديقي من سيعود بك.

كان صوت علي واقفًا وبجواره أخته فاطمة يبتسمان بنصر، مدا أيديهما: – تعال معنا سنريك من كنت وماذا فعلت.

سرت معهما كالمسحور .. كل مرة يخلقان فيها سببًا جديدًا ليستمر فضولي في الاشتعال ..كل مرة أقرر فيها البعد عنهما يأتيان من العدم ويشعلان فضولي من جديد، سأذهب وليكن ما يكن.

هذه المرة قررنا أن يكون الانتقال من غرفتي؛ حتى لا نلفت نظر الناس إلينا بتكرار جلوسنا في الطريق؛ لذا كان الفندق المكان الأنسب للقاء.

انطلقنا سويًّا وفي غرفتي بدأنا الرحلة الجديدة، جلست مقابلًا لفاطمة، أمسكت بكفها البارد دائمًا، نظرت في زرقة عينيها، ثم انطلقت إلى المحروسة .. كان العزيز جالسًا كعادته على عرشه وبجواره شاب أسمر اللون، وأمامه يقف يعقوب يحكي له عن مكتبة القاهرة، وأنه أمر بنسخ جميع الكتب المعروفة بها.

- كم وصل عدد الكتب الآن يا يعقوب؟

- ما يقرب من ثمانين ألف كتاب يا مولاي.

- حسنًا، ضع كل قسم من الكتب في جدار خاص به، وضع على جانب الجدار قائمة بأسماء كل كتاب موجود.

- أمرك يا مولاي، سوف آمر النساخين بالبدء.

لاحظت وقوف برجوان هذه المرة بجانب يعقوب عن يمينه، كأنني أنظر في المرآة، طولي الواضح، اسمرار بشرتي، لحيتي السوداء، كان برجوان يرتدي زيًّا أبيض وعمامة سوداء ذات خطوط بيضاء، وسيفه يتدلى من منطقه، ويقف بتواضع في حضور الخليفة العزيز.

- اذهب إلى سوق السلاح يا برجوان واحصر لي ما تم صنعه من الأسلحة الجديدة والجنود الجدد من الديلم وكتامة.

قبل برجوان الأرض بين يدي العزيز، ثم بخفة تحرك منصرفًا خارج القاعة.

- سيكون لبرجوان شأن كبير يا يعقوب.

- بالتأكيد يامولاي هو من أشجع أمرائنا وأكثرهم علمًا وفطنة.

لاحظت عدم الرضا على وجه الشاب الواقف بجوار العزيز، إلا أن العزيز أكمل كلامه قائلًا:

- أكثر ما أخاف منه ميله للديلم عن كتامة.

- إنهم أهله يا مولاي، ولا يستطيع الرجل نسيان أصله مهما مر عليه من الزمن، لكننا جميعًا تحت لواء خليفة المسلمين العزيز بالله، ولا فرق بين ديلم أو كتامة أو مصريين.

- بمناسبة الحديث عن المصريين، ماذا يحدث في شوارعهم هذه الأيام؟

- يقبلون يدي مولانا، ويدعون له بالخير والبركة وطول العمر.

- أريد أن أجعل من المحروسة مدينة الدنيا كلها يا يعقوب.

- هي كذلك يا مولاي.

- زد من بناء الحمامات، واجعل للديلم منطقة سكنية خاصة بهم ولكتامة منطقة أخرى.

- لك ما شئت يا مولاي.

- انصرف يا يعقوب.

تحرك الشيخ الكبير مقبلًا الأرض بين يدي العزيز، ثم تولى منصرفًا.

قام العزيز هو الآخر إلى داخل القصر، وتبعه الشاب الأسمر الذي كان يقف بجواره؛ لكنه هذه المرة كان يمسك مظلة ذهبية يضعها فوق رأس العزيز أثناء حركته، فصار كأنه والمظلة جزءًا لا يتجزأ من حركة العزيز يمينًا أو يسارًا .. بمجرد حركة العزيز واقفًا؛ تحرك صف من التماثيل المصطفة يمينًا ويسارًا قائمين بشكل جميل .. وتعجبت من وجود مثل هذه الأشياء في هذا الزمن، لكن ما رأيته من جمال القصر وزي العزيز يبين أن القاهرة كانت تعيش في رخاء بالفعل..

قررت الخروج أيضًا لأرى أين ذهب برجوان أو أين ذهبت أنا، لمحت حركة خلف إحدى الستائر، ولما نظرت وجدت فتيات يجلسن حول سيدتهن، لم أهتم بالفتيات وجعلت كل تركيزي على برجوان.

تحركت إلى الخارج باحثًا عن برجوان خارج القصر؛ فوجدته واقفًا على الباب، وكأنه منتظر لأحد ما من بعيد، لمحت شبح رجل قادمًا بين أشجار القصر متجهًا إلى خارج البوابة.

تبادل الرجلان التحية

- كيف حالك يا صديقي ريدان؟

- بأحسن حال يا صديقي.

- هل سنجتمع اليوم في موعدنا؟

- نعم، سنلتقي بعد العشاء في الجامع الأزهر.

انصرف الرجلان وتتبعت برجوان الذي توجه إلى ما يبدو أنه مخزن كبير مليء بالسيوف والرماح، وتحدث مع أحد الرجال، ثم عاد إلى القصر مرة أخرى مترجلًا على قدميه، ولم يتوجه إلى القاعة، بل تحرك خلال الأشجار متجهًا إلى القصر الغربي، مشى بخفة ووثب على شجرة عالية وتسلقها، ثم نظر من إحدى الشرفات محركًا غصن شجرة يمينًا ويسارًا، ثم نزل إلى أرض الحديقة مرة أخرى .. بعد قليل جاءت إحدى الفتيات تتسلل بخفة وتتلفت خلفها حولها، وفي يدها ولد صغير، كان المغرب قد حان، فلم أتبين ملامحها؛ لكن تبينت أكثر من ملامحها بمجرد

لقائها مع برجوان، تلك اللهفة الواضحة، خجلها الذي منعها من أن تطالع مباشرة وجه برجوان، اقتربت أكثر وسمعت حديثهما:

- اشتقت إليك كثيرًا.

- أبي يمدحك دائمًا يا برجوان، اصبر قليلًا وعما قريب ستصبح أحد قواد الجيش، ساعتها تستطيع أن تصرح بحبك لي.

- مهما بلغت من مكانة سيبقى والدك الخليفة، وسأبقى أنا برجوان الصقلبي.

- معك ما هو أهم من المكانة وقد نسيته.

- ما هو؟

- معك قلبي يا برجوان.

ابتسم في رضا ونشوة وأخذ يفرك راحة يديه سعيدًا أما الفتاة فأخفت فمها بكفها ضاحكة.

- معي قلبك، إذن فقد ملكت الدنيا كلها والله.

- الدنيا يا برجوان؟!

- لولا الله لقُلت والآخرة أيضًا.

أسندت الفتاة ظهرها على إحدى الأشجار مع كلام برجوان الذي اقترب منها واضعًا يده على جزع الشجرة، لكن تحرك الفتى الصغير جعله يعود إلى وقفته المعتدلة مرة أخرى.

- سأستمر في الصعود بمكانتي حتى يأتي اليوم الذي أقف فيه بجوار أبيك وساعتها لن تستطيع قوة في الأرض أن تحول بيننا.

- وأنا متأكدة من صعودك يا برجوان، سأعود حتى لا يشعر أحد بغيابي.

- تمهلي قليلًا يا سيدتي، فانصرافك يأخذ من روحي معك.

- ضحكت وقالت لا تتعجل يا برجوان فالتعجل دائمًا يضيع من صاحبه ما يتمناه.

وقعت الجملة علي أنا لا على برجوان، كأنها قيلت لي يومًا ما، لا أدري، أو ربما لأن طبعي التعجل دائمًا، وعلى ما يبدو فإنه كان طبعي في كل زمان منذ أن كنت ذات يوم برجوان.

تحرك برجوان وكاد يقفز من مكانه أثناء مشيه وخرج من القصر عائدًا إلى الطريق العام، واندس بين الناس متجهًا إلى مكان ما، أما أنا فقد سرت بجواره طيف لا يراني أحد ولا يشعر بوجودي أحد كما كنت

دائمًا، لكنني ولأول مرة أكتشف أنني كنت ذات يوم أحدًا ما له مكانة وقلبًا، كنت رجلًا أستشعر الحب ويحبني أحدهم، عجبًا لدورة الزمان وتقلب الأيام، رغم أن روحي هي روح برجوان الذي يبدو أميرًا عظيمًا يدخل على عزيز مصر ويمشي بثقة، معروفًا بين الناس وله اسم كتب على حارة في شوارع القاهرة؛ لكن في زماني كنت رجلًا بلا وزن، أتمنى أن يكون لي أثر، لكنني عشت على التمني فقط، أما برجوان فكثير الحركة، الصباح كان مع العزيز وبعدها في سوق السلاح، ثم مع حبيبته، والآن يتحرك إلى مكان ما .. تذكرت قول فاطمة لي، الساكن يعلوه التراب حتى يدفن .. ودفنت.

دخل برجوان إلى حانوت صغير في أحد أركانه جلس صديقه، ذاك الذي قابله في الصباح.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- تأخرت يا برجوان وليست عادتك.

- عذرًا يا ريدان، بعد العشاء وقفت مع الإمام أسأله في مسألة مهمة.

- أي مسألة؟

- انشغلت في صلاتي وأنا أحب أن أكون من الخاشعين.

- ما أتقاك يا برجوان.

- فقط أحاول أن أكون تقيًّا يا صديقي.

- دائمًا ما تحاول أن تكون الأفضل.

- لست أفضل من ريدان صاحب المظلة.

- بل أفضل، الآن يتحدث إليك العزيز مباشرة، بدأ يثق بك، قريبًا سيوليك منصبًا.

- أليس هذا ما نحلم به سويًّا؟

- بلى؛ لكنك تستمر في الصعود، إلى أي مكان تريد أن تصل يا ترى؟!

- معًا يا صديقي، كل مكان نصل فيه معًا، والمهم أننا أبناء الديلم وكلما كان منا في المناصب العليا استطعنا مواجهة كتامة.

- نعم لكن تبقى المشكلة في يعقوب.

- أصبت، يعقوب، هذا اليهودي هو العائق، دائمًا ما يميل لكتامة.

- وهل سنصبر عليه طويلًا؟

- سيأتي دوره عما قريب، الآن فقط يجب أن تزداد قوتنا ونفوذنا.

- لا الأهم ألا يرانا أحد مجتمعين كثيرًا؛ فليس من مصلحتنا لفت الأنظار إلينا.

- معك كل الحق، سأنصرف الآن، أستودعك الله يا صديقي الوفي.

- في أمان الله يا أخي.

خرج برجوان وتوجهت خلفه، لكن فاطمة أمسكت بيدي.

- تذكر ليس كل الوقت لنا.

- معك حق هيا بنا نعود.

في لحظة كنت جالسًا على مقعدي في الفندق وفاطمة أمامي وعلي بجانبي، لم يتغير شيء وكأن ما جرى لم يحدث أصلًا لكن الفرق الآن أنني بت أعرف مَن برجوان، بِت أعرف أنني يومًا ما كنت ذا أهمية، أما ما أنا عليه الآن فهو مني ومن سكوني..

قام علي وفاطمة وودعاني .. نزلت إلى مسجد الحسن بأضوائه الخضراء وهدوئه العجيب، ظللت صامتًا، أتطلع إلى القبر الشريف والتفاف الناس حوله، كل منهم يتمنى أن تتغير حياته، كل يدعو معتقدًا أن بالدعاء وحده سيتغير حاله .. سخرت من نفسي، الآن تحكم على الناس يا عزيز؟! الآن تعيب على الناس دعاءهم؟

أين كنت قبل أيام؟ أول مرة في حياتك قررت فيها الحركة والبعد عن السكون كان للبحث عن كتاب، ما حركك إلا فضولك .. نعم الفضول.

أعتقد أن كل إنسان منا يجب أن يبحث في داخله عن فضوله، وإلا لبقي ساكنًا مثلي.

قُمتُ لحمامات المسجد متوضئًا، أصوات المجاذيب حول المكان تصبح جزءًا منه، فوضوية الناس، نومهم بالمسجد، أكلهم وشربهم يجعلك تشعر أنهم في بيوتهم .. ربما كان هذا اطمئنان للمكان وشعور بأن هذا المكان بالتحديد هو لهم .. بعيدًا عن تصنع الناس وتأففهم من فقرهم أو احتياجهم.

رجعت وصليت ركعتين لله عز وجل، معاهدًا إياه أن أصلح ما استطعت وأن لا أعود ساكنًا أبدًا.

ما أعجب الإنسان! بين ليلة وضحاها يتغير حاله ويطلق عهودًا ويقول وعودًا موهمًا نفسه أنه سيتغير في لحظة؛ رغم أنه من داخله يعلم تمام العلم أن التغير لا يحتاج إلى وعد .. ولكن التغير يحتاج إلى قرار.

أنهيت صلاتي متممًا بكل دعاء سمعته يومًا، تاليًا كل ذكر حفظته من قبل، تلبستني حالة من الزهد وإحساس قوي بالصلاح وأنني بمجرد الركعتين أستطيع أن أغير كل شيء؛ بل وإنني إذا دعوت دعوة الآن حتمًا ستستجاب، لكن الأمر لا يحتاج إلى تجربة؛ فيقيني يكفيني، والحالة التي أشعر بها خير دليل، وخيلَ إليَّ من قوة صلاحي أن مكاني ليس الأرض ومن عليها بل ربما نزلت وسط الناس فقط لأختبر حالهم أو عقاب بسيط على نزواتي السابقة، وعما قريب سأعود إلى المكان الذي يناسب أمثالي من أهل الصلاح والتقوى.

لم أشعر برغبة في النوم، بل رغبت في المشي وتفقد أحوال الناس، دخلت شارع المعز، الآن أشعر أنني أمشي وسطَ ما يعود إليَّ وما كنت أمتلكه يومًا من قبل، حينما كنت أمشي هنا كانت الناس تقف احترامًا وطالما كنت ذا أهمية فيجب أن أراعي ما كنت أملكه يومًا، اختلفت مشيتي ونظرتي للمكان من حولي، دخلت حارتي، أعني حارة برجوان، بجدرانها وأرضها، فيها جزء من روحي القديمة، مشيت كثيرًا حتى خرجت من منطقة الحسين بكاملها، كان ثمة سؤال يشغل بالي، إذا كان هناك قد سمي باسمي؛ فهذا يعني أن برجوان وصل إلى ما يتمناه وصار

ذا شأن وهذا جيد، لكن السؤال الآن أين ريدان؟ هل هناك مكان يسمى باسمه؟ إذا لم يكن له شارع باسمه فهل يعني هذا أنه فشل؟ أو أنه لم تكتب له الحياة حتى يكون ذا شأن كما تعاهدنا؟

أردت أن أعود وأوقظ فاطمة وعلي وأرجع لأرى ما حدث؛ لكن لا يصح، فالوقت تأخر، وأنا أيضًا أحتاج إلى النوم؛ فغدًا أخطط لأن أقضي وقتًا أطول من ذي قبل، أريد أن أعرف كل ما حدث، وأن أرى مصير ريدان

قررت الرجوع إلى الفندق، مشيت مسرعًا غير عابئ بأبواق السيارات التي تدوي بين حين وآخر لتنبيه هذا المجنون الذي يتقافز بين السيارات وكأنه يبحث عن شيء ما .. والحق يقال، إنني بالفعل كنت أسرع الخطى لأبحث عن نفسي .. برجوان.

ليس الشخص ذاته؛ لكني كنت أبحث عن نجاح برجوان الذي فشلت في تحقيقه، والإنسان منا يبحث عن نجاحه بكل شكل ممكن، ذلك لأن نجاح الإنسان يعني ذاته وهويته.

لكن ثمة أمر شغل بالي في كل مرة تأتي فاطمة إليَّ تستحثني بشكل أو آخر لننتقل إلى هناك، ولما تأخرت أتيا إليَّ ليبحثا عني، بالتأكيد الأمر

ليس مصادفة، وبالتأكيد أيضًا لهما مصلحة ما في عودتي إلى هناك، ما الفائدة لهما؟ ثم إذا كان هناك تناسخ للأرواح وكنت هناك برجوان فأين علي وفاطمة؟ وأين ريدان في زمننا؟وصلت إلى الفندق مع أذان الفجر في مسجد الحسين فدخلت لأصلي، أنهيت صلاتي وتوجهت إلى غرفتي لأرتاح قليلًا .. بداخل الفندق وجدت فاطمة تنتظرني.

- صباح الخير.

- صباح الخير.

- أتيتِ مبكرًا اليوم؟!

- نعم أمامنا يوم شاق وسنبدأ مبكرًا اليوم.

- لكن عندي أسئلة قبل أن نبدأ.

- تفضل سل ما شئت.

- ماذا ستستفيدين مما يحدث؟

- أستفيد من ماذا؟

- ذهابي هناك.

- أنت الذي تحتاج لا أنا.

- حسنًا، سوف أتوقف الآن لا أريد إكمال هذا الانتقال.

- لا يمكنك أن تتوقف الآن.

- لماذا؟

- ستنتهي رحلتك.

- سئمت منها ويكفي ما رأيته.

- ما أشد تغيرك يا عزيز.

- وما أشد غموضك يا فاطمة.

- لست غامضة.

- بل الحق إنك لست واضحة، أنت ضبابية يا فاطمة.

سكتت قليلًا تنظر في الأرض تضرب قدمها بعصبية واضحة:

- تريد أن تعرف ماذا أستفيد؟

- لن أعود إلا إذا عرفت.

- لن أحكي .. لكن سأريك.

- موافق هيا بنا.

أمسكت بيدها ونظرت في عينها .. ثم في لحظة كنت هنا.

برجوان يقف في الحديقة والشمس على وشك الغروب، قرصها الأحمر يبدو جليًّا في السماء الصافية، تنعكس أشعتها على الأشجار

والورود، رائحة الياسمين تملأ المكان؛ فتزيد من روعته جمالًا، جدول ماء صغير يتسلل بين الشجيرات، صوت طيور العزيز تملأ المكان بأصواتها الجميلة، ورغم كل هذا الجمال ينظر برجوان يمينًا ويسارًا يحاول أن يختفي بين الأشجار، ثم يطل برأسه يرى هل هناك أحد قادم أم لا.

من بعيد ظهرت فتاة تمشي بخفة وتتحرك مسرعة متجهة إلى حيث يقف برجوان، رداؤها بنفسجي، شعرها الأسود ينسدل خلف ظهرها يتحرك بحركتها كموج أسود طويل لا ينتهي.

تهلل وجه برجوان لرؤيتها حتى أصبح أكثر إشراقًا من شمس الأصيل، بل أعتقد أنني سمعت دقات قلبه المتتالية، مد يده مرحبًا بها متهللًا بقدومها وابتسامته الواضحة تكاد تزيد الأشجار إيراقًا والزهور إيناعًا.

لكن بمجرد اقتراب الفتاة ووضوح ملامحها كانت الصاعقة التي ألجمتني وفكرت في الرجوع إلى الفندق

كانت الفتاة التي يحبها برجوان هي نفسها .. فاطمة.

أصبح كل شيء واضحًا تمامًا، كل ما تفعله فاطمة ليس من أجلي أنا؛ بل من أجل برجوان، وهي نفسها كانت تحب برجوان.

مرت لحظات لم أنتبه فيها لكلامهما معًا فقد كنت أفكر في فاطمة والفتاة الواقفة أمام برجوان، حاولت أن أسمع كلامهما سويًّا فوجدت برجوان يتكلم وكأنه في عالم آخر.

– العجب يا سيدتي كل عجب عندما أنظر إلى جمالك وكأنه استحوذ على جمال الدنيا كلها.

– لا تبالغ يا برجوان.

– أبدًا يا سيدتي بل يخيل إليَّ أن لو تجسدت الجنة بنعيمها وجمالها في شكل بشري وصار النعيم أن ينظر إليها المؤمنون فيستبشرون وينظر إليها المشركون فيتحسرون؛ لتجسدت فيك مولاتي.

أطرقت الفتاة رأسها خجلًا عاجزة عن الرد .. أما أنا فلم أعلم كيف لرجل أن يأتي بوصف كهذا، وأعجبني أن أكون برجوان بطلاقة لسانه.

تحدثت الفتاة قائلة:

– لا تتوقف يا برجوان أسمعني من جميل كلامك.

– أما عينيك فإنها تجران المصائب على القلب، ترسلان سحرًا فيحدث بهما انقلابًا للحال لا يعالجه أي شيء.

– وإذا تبسمت؟

– فالهواء يرسل قبلات لا تنتهي، تسيل سيلانًا يذوب منها الحديد، فما بالك بقلبي!، والله يا مولاتي كلما أغمضت عيني لاح لي نور وجهك فأشرق في عيني فأفتحها لعلني أراك فلا أجدك، وإن سرت ليلًا فظلامه يذكرني بشعرك ورحيق الياسمين؛ فكأني أنعم في جنتك وإن سرت نهارًا كانت الشمس بدفئها كدفئك؛ فأنت يا مولاتي كلي وأنا أدور في فلكك فأصبح وأمسي بك ولك.

– وإن غضبت منك؟

– فغضبك كغضب السماء، فلك رعد وبرق وسيول تنهمر، وليس لي إلا اتقاء برقك فأهرب منه لسقف احتوائك ومظلة رعايتك.

– وإن غبت عنك؟

– فيا ويلي من غيابك، يأكلني الشوق وينهش في قلبي، أظل حائرًا لا أدري أين أذهب، ولولا الخوف عليك لجئتك هنا وسألت عنك.

– احترس يا برجوان، لو علم أبي؛ لقطع رأسك وعلقها على أسوار المحروسة.

– ما همني رأسي؛ بل كل همي أنت يا مولاتي.

– وأنا يهمني أنت يا برجوان.

– دعنا ننصرف فأبي سوف يصل عما قريب دعنا نأخذ حذرنا؛ حتى نقدر على اللقاء مرة أخرى.

انصرف الحبيبان وقررت أن أتبع الفتاة .. وجدتها تمشي، تتراقص، تداعب أوراق الأشجار وتتشمم الزهور، تحادث هذا وتسر بإحساسها لذاك، ويشعر بحبها الورد والشجر والنجم والقمر، حتى خيل إليَّ أن كل الأشجار من حولنا تتراقص لفرحها وتشدو الطيور بعذب الصوت فرحة بغنائها، كيف لهذه الفتاة أن تنقل كل مشاعر محبتها للكون من حولها .. وأي حب هذا الذي يشعر به كل مخلوق من حولنا، لطالما سمعت عن الحب وحسبت أني شعرت به يومًا، أما ما رأيته من هذين الحبيبين فقد أثبت لي أن كل ما شعرت به في حياتي وظننته حبًّا ما هو إلا أوهام، وعزائي الوحيد أنني كنت ذات يوم برجوان.

دخلت الفتاة إلى القصر فقابلتها وصيفاتها يتراكضن ليستقبلن سيدتهن، ضاحكات، ملتفات حولها، أما هي فلم تشعر بشيء من ركض الفتيات حولها، فقد كانت كما يبدو لا تزال كلمات برجوان تتردد في عقلها والذي غيبها عن أن تشعر بكل شيء من حولها.

أخذت الفتيات بيدها وأجلسنها على بساط وثير، تحيط بها الوسائد المختلفة، ومن الخلف ستائر متدلية ألوانها زاهية وأمامها نافورة أظنها للعطر لا للماء فقد كانت الرائحة العطرة تملأ المكان من حولنا.

بادرت إحداهن سيدتها بسؤال:

– ما بك يا سيدتي هل أغضبك شيء؟

سكتت الفتاة قليلًا، ثم تنهدت:

– ما بي ليس غضبًا، كنت قديمًا أحسب أن السحر له وقع مختلف وأن السحرة أناس استحوذ عليهم الشر فأرادوا أذى الناس.

– إذا ما السحر يا سيدتي؟!

– السحر كلمات تلقى فتأسر العقل وتقع على القلب فيصير كالموج يعلو ويهبط.

– وما بك يا سيدتي؟

– سحر وقع عليَّ فأذابني وأسرني ونقلني من عوالم البشر بخطاياهم وكثير كلامهم إلى عالم آخر لا صوت فيه غير صوت واحد، لا أسمع إلا هو، ونقاء نفس لم أره أبدًا.

– وهل ستكررين لقاءك به؟

– ما تعلمته في هذا السحر أن الإنسان فيه لا يملك من أمر نفسه شيئًا، وأن الأسير لا يستطيع أن يرفض طلب آسره، إن شاء لاقاه، وإن شاء نساه، فبقي وحيدًا يبحث عن أحد يشعره بحياته، وأن الكون حوله باق لم ينتهِ.

– لكننا نخاف عليكما من الوشاة والحساد.

– أما الوشاة فالله وحده يقينا خبث نفوسهم، وأما الحساد فلو علموا ألم البعد بيننا ما حسدونا، وأي حسد في أن يكون الماء أمام الظمآن، ثم لا يستطيع أن يمد يده إليه.

– سنقف حولكما بعد ذلك يا سيدتي نراقب مرور أحد أو محاولة استراق نظر إليكما.

– لكم ما تريدُنَّ ولي برجوان.

ضحكت الفتيات من حولها عند سماعهم الاسم، وأما هي فكأنها في عالم آخر، لا تهتم بضحك الفتيات؛ بل بدا أنها تسترجع كلام برجوان عنها، فلاحت على شفتيها ابتسامة ساحرة أذابت الكون من حولي أنا .. عزيز.

عدت مرة أخرى إلى فاطمة لكن هذه المرة بروح جديدة، وكل موقف نمر به نخرج منه بروح مختلفة، فلا أنا عزيز الذي بدأ رحلته ولا

أنا نفس برجوان الذي عاش قديمًا، تبسمت لفاطمة سائلًا إياها تناول الغداء سويًّا وعلى ما يبدو فقد تعلقت روحي بها، وتمنيت ألا ينتهي الكلام بيننا؛ بل تمنيت أن نزداد قربًا ومعرفة، والأهم نزداد حبًّا، قمت معها، مشينا طويلًا بلا كلام، لا أعلم من أين أبدأ وهي مطرقة رأسها، لا تتحدث حتى وصلنا إلى أحد المطاعم المعروفة، جلسنا متقابلين والصمت مستمر معنا إلى أن قررت كسر حاجز الصمت.

– ما بك؟ شاردة الذهن صامتة!

– لا شيء.

– أطلت النظر إلى عينها وزرقتها، خيل إليَّ أن ثمة قطرات من الندى تتلألأ في سمائها الزرقاء، لكن ما حسبته الندى كان دمعًا يلوح في أجفانها.

فسألت خائفًا بصوت يتهدج ماذا حدث أأغضبتك بشيء؟

– هزت رأسها نافية.

نظرت حائرًا لا أعلم سر بكائها لكني قررت دعمها أيًّا ما كان السبب، ففي الأخير نحن نبكي لأن مخزون دعمنا الذاتي قد نفد.

– قمت إليها، ربت على كتفها، همست لها (أنا معك مهما يكن. ستكون الأمور بخير أعدك)

تحركت رأسها ببطء لتنظر إليَّ قائلة: كن بجانبي أحتاج إلى وجودك دائمًا.

صحت بصوت السعادة: أنا بجوارك دائمًا، كما كنت من قبل.

تناولنا غداءنا بين نظرات متبادلة وضحكات هي انعكاسات لحب ينمو ويورق وتلامس للأيدي يرسل شرارات تزيد الحب نموًّا وازدهارًا، بعد قليل قمنا لأتوجه إلى فندق إقامتي ونفترق على أمل باللقاء في الصباح.

في الطريق تحدثنا كثيرًا عن برجوان وحبه القديم فسألتني:

- أتعتقد أن برجوان يحبها حقًّا؟ أم فقط حتى يحافظ على مكانته عند أبيها؟!

- قطعًا يحبها، هل رأيتِ نظرته إليها، فرحته بمقدمها، إشراقة وجهه في لقياها.

قالت بابتسامة ماكرة: أي رجل يمكن أن يصطنع كل هذا، أنتم حقًّا بارعون في الاصطناع.

- الحق أنك تظلمين الرجال.

- أقول ما رأيت منهم وما سمعت عنهم.

- لا ينبغي تعميم التجارب، لا ذنب للرجال في تجربة سيئة مررت بها، قد يكون فشلها نابعًا منك.

- ويحك، تنتصر لنوعك!.

- لا، أعتذر غلبني اندفاعي، الحق إن كل الرجال غرقى في موج عينيك.

أقسم أن سمع صدى ضحكتها كل أركان المحروسة قبل أن ترد قائلة: إذن فأنا محقة، أنتم أباطرة الاصطناع أول مرة أرى وجهة نظر تذوب بمجرد نظرة.

- نظرتك تذيب وجهة نظر وكيان.

- لقد وصلنا، أعتقد أن النوم يغالبك فقد صرت تهذي بكلام النائمين.

ابتسمت من قولها وصافحتها مودعًا، ودعتني باسمة وودعتها مؤملًا إشراق الصباح لعله يهدي لنا بسمة تضيء ظلام تجاربنا القديمة.

على سريري جلست ناظرًا إلى سقف الغرفة أتذكر ابتسامتها، حديثها معي طوال اليوم، مشاكستها لي، المناقشات التي تخضع في النهاية لسطوة عينها وسحر ابتسامتها.

غريب أمر الإنسان، يتغير أمره بين ليلة وضحاها وهو في تغير أمره يتكيف مع ما جد، رغم محاولته لمقاومته، كنت أهرب من فاطمة والآن أهرب إليها، جئت المحروسة باحثًا عن حلم فنشأ حلم جديد.

ثم سقطت في نوم عميق.

وفي الصباح قمت مضطربًا تائهًا، عيني تزوغ، وأنفاسي تتلاحق، نزلت درج الفندق مسرعًا، أكاد أطير طيرانًا، أسير بين الطرقات، وأطالع في الوجوه غير عابئ بملابس نومي التي أسير بها، ولا بأقدامي الخالية من حذاء يسترها، وقفت في ساحة الحسين صائحًا بأعلى صوتي (يا فاطمة). صرت أنادي وأكرر راجيًا أن تظهر من اللاشيء وكلما ناديت عليها اجتمع حولي الدراويش يصفقون ويحركون رؤوسهم يمينًا ويسارًا وينادون معي يا فاطمة يا علي يا حسين ظلت الكلمة تتردد وتضيع وسط صيحات الدراويش العالية بينما لم يلتفت أحد لينظر إليَّ؛ فعلى ما يبدو كنت أشبه هؤلاء الدراويش، قررت الرجوع إلى الفندق، اندفعت مسرعًا بين جموع الدراويش، أدفع أجسامهم المتلاحمة واضعًا يدي على أذني من أصواتهم العالية، ركضت سريعًا حتى عدت إلى الفندق في سريري وعلى غرفتي، وضعت رأسي بين يدي أبكي كمن فقد أمه، أتمتم فاطمة.

مع دقات على باب الغرفة انتبهت لحالي فقُمتُ متثاقلًا لأفتح الباب، أمسح دموعي بيدي لأرد على الطارق أن يصبر قليلًا فتحت الباب لأجدها أمامي .. فاطمة بزرقة عينها وحضورها الممتع، أقبلت عليها واضعًا رأسي على كتفها مستسلمًا كناج من معركة أو كمسافر وصل إلى أرض الوطن، وهي الوطن.

مسحت براحة يدها على شعري الملبد متسائلة بفزع:

– ما بك يا عزيز؟ ماذا أصابك؟

– رأيت كابوسًا يا فاطمة، كابوسًا مرعبًا.

ربتت على كتفي بحنان:

– ماذا رأيت يا عزيز؟

– رأيت فيما يرى النائم أنني في كهف وأمان، بين زهور وريحان، وهدوء وسلام، وحولى أصوات غناء وألحان، وبينما أنا في تلك الجنة إذا بسكين يخترق ظهري فنفذ إلى بطني، ورأيت نصله بعيني، ولم أر الفاعل، والدماء من حولي تتناثر، وزال الكهف وحل محله الخوف، واختفى الريحان وانقلبتُ إلى جثمان.

ذلكم ما كان من الرؤيا، فقمت خائفًا فزعًا أبحث عنك، وكنت أشعر أنني خواء رجل ذو قلب فارغ وعقل ضائع، أبحث عن الأمان

ولا أجده، لا أعرف للاطمئنان طريقًا، ولا أنيس لي، ولم يأت ببالي غيرك، وكأن الناس من الدنيا قد زالوا، فلا أرى نظراتهم، ولا أسمع تعليقاتهم، وكل ما أشغلني أن أجدك وأقص عليك الرؤيا، وقبل الرؤيا أقتبس من وجودك الأمان.

- لا تخف يا عزيز هي أضغاث أحلام، حلم لا معنى له، أما أنا فاعلم أنني معك دائمًا كما كنت من قبل، وهذه المرة لن يفرقنا شيء.

- هدأت نفسي وسكنت روحي والروح والنفس لا يسكنان إلا لحبيب يا فاطمة.

- ابتسمت وقالت الآن أعلم أنك عدت لطبيعتك، قم وسأنتظرك في ساحة الحسين.

قامت بخفة وتحركت لتخرج، وعلى الباب التفتت باسمة لا تتأخر يا عزيز.

كان لكلماتها مفعول السحر، قمت مسرعًا، اغتسلت وتعطرت وعدت لنفسي من جديد، يجب أن أصل إليها.

في الساحة كانت فاطمة تنظر إلى مئذنة مسجد الحسين، تطيل النظر إليها، وتتأمل في معالمها، وقفت بجوارها، لم تشعر بوجودي، ومن

جانبي لم أحاول أن أفسد عليها لحظات تأملها تلك، فكما عرفتها شغوفة بالتاريخ والآثار وتجد في كل أثر حولها معنى يريح نفسها ويسعدها، ومنذ عرفتها لا هدف لي إلا إسعادها والحفاظ على شغفها.

حانت منها التفاتة فدهشت لوجودي فصاحت:

- عزيز، منذ متى وأنت هنا؟!

- وصلت قبل قليل ولم أرد أن أفسد عليك تأملك، أعلم محبتك للتاريخ، فتمنيت أن أكون تاريخا يحكي؛ لذا دائمًا ما حسدت برجوان وريدان والفتاة الجميلة، هؤلاء الشخوص كانوا تاريخًا فأحببتِهم. فيا ليت لي في حبك نصيب.

- لا تنسَ أنك كنت ذات يوم برجوان، وروحك التي بين جنبيك وصلت إليك من برجوان.

- إذن فأنا تاريخ حاضر، فلي من قلبك جزءان لا واحد، تاريخ يحكي، وجسد يحمل تاريخًا بين جنبيه.

- أنت مشاكس يا عزيز؛ لكن ألم تشتَق لمعرفة ما كان من أمر برجوان؟!

- بالفعل اشتقت لأعلم ما حدث له وخاصة أن السبيل لمعرفة ما كان هو النظر في عينيك يا فاطمة.

– ضحكت وقالت إذن دعنا نذهب إلى هناك؛ فالأحداث تسارعت.

جلست أمامها أدقق النظر في زرقة عينها، الأمواج تعلو وتجذبني وغرقت؛ لأجد نفسي واقفًا مرة أخرى في القاهرة الفاطمية.

رأيت برجوان يسير وبجواره صديقه ريدان جنبًا إلى جنب ينسلان بين أزقة القاهرة متجهين إلى مكان ما.

تتبعتهما فدخلا مكانًا بابه من سلاسل معقودة بشكل جميل، تضيؤه مصابيح متعددة بألوان مختلفة، عليها رسوم جميلة وألوان زاهية، يتناثر في جنبات المكان رجال جلوس يتجاذبون أطراف الحديث كمن عاد من يوم متعب طويل، أما برجوان وريدان فقد اتجها إلى أبعد نقطة ممكنة في الحانوت، جلسا متجاورين يتهامسان.

قال برجوان: ما زال ذاك اليهودي يستأثر بسيدنا، له كل الوقت وكل النفوذ، ورغم سنه ما زال سيدنا يستمع له.

– الخوف ليس من مجرد الاستماع يا صديقي فالعلاقة بينهما تعدت كونه وزيرًا فصار صديقًا للخليفة.

– مهما فعلنا سنبقى كما نحن وهذا لا يمنحنا مالًا ولا منصبًا، وأحلم بأن يكون لي قصرًا كقصر اليهودي.

- ما دام هو موجود؛ سيظل حاجبًا بيننا وبين الخليفة.

- إذن حان الوقت لنبعده عن مكانه.

- إذا مات في هذا الوقت سيتغير سيدنا كثيرًا، لا بد أن نرى حلًّا يبعده بدون موت، أو على الأقل نؤجل موته إلى حين.

- هل عندك حل يساعد؟

- ليس الآن؛ لكن دعنا أولًا نرى ما نستطيع فعله ولا نستبق الأحداث.

- الوقت يمر، وكل يوم في صالحه كما ترى.

- أعلم جيدًا ما تقول لكن أولًا يجب علينا أن نصرف الأنظار عنا.

- لا نحتاج لكثير، كل ما نحتاجه زيارات على فترات وجنود محملين بالهدايا تقديرًا لوزير المحروسة.

- وبأي سبب سنزوره؟

- أسهل سبب، لنحضر دروس العلم التي يلقيها في داره يوم الجمعة.

اتفقا على ذلك ثم تغير الحديث إلى صوت مرتفع يظهران للناس كلامًا عن الغناء وصنوف الجواري وأصواتهن وعن سوق الغناء المقام عند باب زويلة، وطال الحديث بينهما حتى قاما من المجلس وانصرفا.

في صباح اليوم التالي تقابل كل من برجوان ريدان، لكن هذه المرة عند القصر الملكي، ولا أحد يتخيل أن تكون المنطقة الشعبية التاريخية في القاهرة هي في الأصل مكان لا يستطيع عامة أهل مصر الدخول إليه، وقفت أنظر إلى القصر واتساعه وحركة الجند فيه، وأقارن بين ما صار عليه هذا المكان وبين ما كان.

على باب القصر لمحت الشابين برجوان ريدان يمشيان سويًّا متجهين إلى ذلك الرجل العجوز الذي رأيته من قبل مع الخليفة، كان الرجل تبدو عليه سمات الصلاح مع شيبته الواضحة في لحيته ومشيته وحركته البطيئة، رغم وضوح حدة الذهن في بريق عينه الذي لم يخفت مع مرور الزمن، صاح برجوان مناديًا:

- السلام عليكم وزيرنا العظيم.

- وعليكما السلام، سيف الخليفة ودرعه، برجوان الفارس وريدان صاحب المظلة.

- بل أنت وزير الفضل يعقوب بن كلس، أستاذ الوزارة وصانعها.

- كلنا للخليفة خدم وأعوان.

- هل من شيء يحتاج إليه صاحب المظلة أو الفارس؟

– لا شيء، كنا فقط نرغب في حضور مجلس الجمعة بدارك فرأينا أن نستأذنك قبل المجيء.

– هذا شرف عظيم، إذن دعونا نتناول طعام الغداء سويًّا في ضيافتي.

– حسنًا، موعدنا غدًا الجمعة إن شاء الله تعالى.

– إن شاء الله.

حياهما وانصرف الوزير وبقي الصاحبان يلوحان له مودعين.

– حسنًا، يا برجوان الآن يبدأ الجند في الاعتياد على رؤيتنا معه وهذا أهم شيء في هذه الفترة.

– لكني لا أطيق اصطناع التبسم في وجه ذاك اليهودي.

– أخفض صوتك، لا تدري من يسمعنا، ودعنا نتقابل بعد العشاء.

– حسنًا، نتقابل بعد العشاء.

قبل الانصراف، مر موكب من الجند بمحمل مغطى لا يظهر منه أي شيء، فخفض كل جندي ورجل رأسه إلى الأرض، وانحنى الجميع لتحية الموكب القادم.

من بين كل الرجال لم يرفع بصره أثناء الركوع إلا برجوان، كان ينظر وعلى شفتيه شبح ابتسامة غريبة، وبدا كأنه لا يهتم بالخوف الذي اعترى الجميع عند مرور الموكب.

لكن الذي لم يلاحظه برجوان نظرات ريدان إليه بينما خفض الجميع بصره، ورنا بصر برجوان للمحمل كان ريدان الوحيد من جهة أخرى ينظر بحدة لبرجوان نظرة شراسة لا تغيب عن فهم الرجال، نظرة رجل يحقد على آخر، يرغب بدفعه عن طريقه دفعًا للفوز بالأنثى.

هنا لم يعجبني أبدًا ما رأيته من ريدان، تلك النظرة الراغبة بإخلاء الطريق لنفسه من منافس آخر يستحوذ على قلب أنثاه.

لكن لم أعلم هل ريدان لم يلاحظ كيف فتحت ستارة المحمل عند المرور أمام برجوان؟!

أم هل تجاهل ريدان ما رأيته أنا أيضًا، الحق أن عينًا لا تخطئ أن المحمل رغم سرعة مروره وارتفاعه وتغطية محتواه إلا أنني أقسم أن الكل اعتقد أنهم حملوا الشمس داخل المحمل، وإن شئت فقل أن ثمة حديقة كانت بداخل ذلك المحمل، تشتم فيها عبير الأقحوان والخزامى، الريحان والنرجس، كأن زهور الدنيا اجتمعت في المحمل، أما برجوان

فقد انعكست شمس المحمل وعطور حديقته على روحه فبمجرد انصراف المحمل قام واقفًا، ولأول مرة أرى بشريًّا يشرق.

في يوم الجمعة خرج موكب الخليفة كالعادة متجهًا إلى الجامع الأزهر المقابل للقصر الملكي، المعز على حصانه بردائه الأسود وعمامة سوداء موشحة بخيوط من الفضة وجواهر واضحة للعين مهما بعدت المسافة، وعطر يسحب الأنفاس، عن يمينه وزيره يعقوب، ومن خلفه برجوان، ومن الجهة الأخرى ريدان يمسك بمظلة تقي الخليفة من شمس الضحى، والخدم حول الموكب يلقون بالدنانير لأهل المحروسة الواقفين يمينًا ويسارًا يحيون خليفتهم.

على باب المسجد نزل الخليفة عن فرسه وأقبل الخدم إليه يتبادرون لحمل نعله، يحفظونه له، ودخل ومن خلفه ريدان ويعقوب، وأخيرًا برجوان. امتلأ المسجد بجموع المصلين ويعقوب على المنبر يخطب الجمعة، دعا فيها للخليفة بالنصرة والرفعة وحفظ البلاد والعباد، وذكر أهل مصر بوجوب السمع والطاعة واتباع الأوامر وإخراج الزكاة، وختم كلامه ببشرى لهم، أن منحهم الخليفة العزيز بالله بعض العطايا، فكبَّر الناس فرحين ومهللين.

بعد الانتهاء من صلاة الجمعة وانصراف الناس داعين للخليفة بطول العمر ودوام الصحة، رجع الخليفة إلى قصره واستأذنه يعقوب في الانصراف لداره وإقامة مجلس العلم المعتاد فأذن له.

ثم تقدم إليه الشابان برجوان وريدان، وطلبا الانصراف لحضور مجلس العلم، فظهر السرور على وجه الخليفة وهو يسمح لهما بالانصراف.

تحرك الشابان نحو سوق العطور، وألح ريدان على أن تكون الهدية قيمة وغالية الثمن، فما زالا يمران بين الحوانيت ويختار كل منهما عطرًا حتى وقعا على عطر أعجبهما، واختارا له قنينة محلاة بالذهب، ووضعاها في صندوق من العاج.

سار الفارسان إلى دار الوزير يعقوب. عرفت الطريق جيدًا من خلال جلستي الطويلة في الفندق بمنطقة الحسين، فدار الوزير كانت خلف المنطقة المعروفة بالغورية، أما الدار فكان واضحًا عليها أنها دار وزير، فهي خلاف البيوت الموجودة في القاهرة، دار واسعة، أمامها حديقة صغيرة النوافذ، عليها أشكال هندسية بديعة، أصوات لها دوي تملأ المكان، بمجرد الدخول تعرف سر الأصوات. فقد تجمع الناس على

شكل حلقات والشابان يمران بين الحلقات، واحدة للقرآن وأخرى للحديث، وثالثة للشعر، والوزير يجلس متكئًا في مكان عالٍ ينظر إلى الناس وهم يتدارسون، أما من الجهة الأخرى فكانت الحديقة عبارة عن مجالس للطعام، كل مجلس لفئة من الناس، وتختلف المجالس باختلاف أصحابها بين الرائحة العطرة الواضحة والفُرُشِ الوثيرة والنمارق المحلاة بأوشحة الذهب، ومجالس أخرى لا يبدو عليها أي ملمح جمال، مجرد وسائد متناثرة وأطباق موضوع بها بعض قطع اللحم.

بعد أن انتهى الشابان من الجولة ذهبا إلى مجلس الوزير الذي قام مرحبًا بهما متهللًا لقدومهما، ومن جهتهما قدما إليه الهدية الغالية فقبلها بتقدير.

عن اليمين جلس برجوان وعن يساره كان ريدان، تبادلا معه كلمات الترحيب المعتادة، ثم سألهما عن أي علم يحبان البدء فيه، فجعلا له حرية الاختيار والتوجيه فهو -على حد وصفهما -المعلم المربي والأب الكريم وهما طالباه وابناه، فكيفما أمر فعليهما السمع والطاعة.

سُر يعقوب بأدب طالبيه الجديدين، وسكت هنيهة يداعب لحيته البيضاء الكثيفة، يفكر وهما يراقبان ما سينطق به ليبتدرا إليه موافقين.

تحدث الوزير قائلًا:

- قبل البدء في طلب العلم تعالا أريكما شيئًا نادرًا.

نظر كل من برجوان وريدان إلى بعضهما البعض مستفهمين عن ذلك الشيء.

قام الوزير وتبعه الشابان ودخل إلى منزله وصعد الدرج الخشبي وهما يتبعانه وما زال ينتقل من درج إلى آخر حتى وصل إلى أعلى الدار، فوجدا أقفاصًا متنوعة بين حيوانات وطيور، ذلك شبل صغير، وهذا ظبي أسود، وطيور ملونة لم يشاهدا أيًا من تلك المخلوقات من قبل، كل منها يأخذ اللب بجماله وندرته.

تحدث الوزير بزهو عن كنوزه من الطيور والحيوانات:

- جئت بها من بلاد الهند، لا أحد يملك أفضل مما عندي.

بادره ريدان

- بالطبع، أنا لم أر مثل هذا الجمال من قبل، هل رأيت مثله يا برجوان؟

- أنا أيضًا لم أر أشياء مثل هذه، لكن هل تعتقد أن أحدًا في مصر عنده مثل هذه الطيور؟

- لا والله، ولا أحد يقدر على ثمنها.

ابتسامة الوزير التي علت وجهه دلت على وقع كلامهما عليه، وافتخاره بكنوزه من الطيور، وإكرامًا لهما سمح لكل منهما بأخذ طير واحد يضعه في داره، فاختار برجوان الباز واختار ريدان الطاووس.

نادى الوزير على خادمه ليحمل طير كل منهما إلى الأسفل، وقام ليعود إلى مجلسه ومن خلفه برجوان وريدان.

عاد الوزير ليجلس على متكئه وبجواره الشابان فأخبرهما أن حان موعد إقراء الفقه، فجلس كل منهما على الأرض عند أقدام الوزير ليستمعا بخشوع إلى درس العلم الذي يلقيه الوزير.

فأمسك بكتاب يقرأ منه، عليه زخارف ملونة، كتب اسمه بماء الذهب بخط جميل متداخل، لم أستطع تمييز عنوانه، لكن انتبهت إلى درس الوزير، فقد كان يشرح العلم الذي وصله من لسان سيدنا العزيز بالله على حد قوله، فكان يقرأ ويقوم بالشرح والناس تجلس بخشوع يستمعون، وعلى جانب الحديقة يجلس بعض الكتبة ينسخون كلام الوزير إلى أن انتهى من شرحه، فقبل الكتاب ووضعه على عينيه ودعا لصاحبه وجده بالرحمة وقبول الأعمال الصالحة.

ما إن قام الوزير حتى وقف الناس منتظرين إشارته، فقال بصوت يسمعه الجميع:

- الكل يدخل إلى مجلسه ويتناول طعامه، ولا تنسوا الدعاء لمولانا الخليفة بالبركة وطول العمر.

فعلت الهمهمات بالدعاء، واتجه هو إلى مجلس خاص يتبعه برجوان وريدان، فوضعت أمامهما صنوف الطعام المختلفة والحلوى، وفي أحد الأركان نار مدفئة تفوح عطرًا يلقي بشذاه على الحضور.

بعد الانتهاء من الطعام استأذن كل منهما في الانصراف على وعد بالعودة كل يوم جمعة لينهلا من الوزير العلم، مع كلمات ثناء على الوزير بسعة علمه واطلاعه، ومدى الاستفادة الواضحة من مجلس العلم ذاك.

قام الوزير مودعًا إياهما، متمنيًا لهما قبول العمل والإخلاص فيه.

عاد الوزير ليجلس مع خادمه، وهذه المرة اخترت الجلوس مع الوزير لا أن أتبع الصديقين، مد الوزير قدميه أمام نار المدفئة وتحدث مع خادمه الذي قدم إليه طبقًا من الحلوى؛ فتناوله الوزير على مهل وتحدث قائلًا:

- عجيب أمر هذين الشابين، أول مرة منذ عرفتها يتقربان إليَّ بهذا الشكل، منذ متى وهما يهتمان بطلب العلم، واختياركل منهما لطير يدل

عن شخصيته، وتعمدت ترك المجال لهما، فاختار برجوان الباز وهو مثله في انقضاضه على الفرص وحدته، وأما ريدان فاختار الطاووس بزهوة وغروره واعتداده بذكائه. وقانا الله شر كل منهما.

رد الخادم: حفظك الله يا سيدي خذ حذرك، ولا تأمنن لأي منهما، خاصة ذاك الفارس برجوان.

- على العكس، كل الخوف من ريدان.

- أيًّا ما كان، فالحرص واجب، وقد يكونان فعلًا حريصين على التعلم منك يا سيدي؛ فأنت صاحب العلم في القاهرة.

- أسأل الله أن يبعد عني مكر الماكرين وكيد الكائدين.

- آمين وأدام الله بقاءك يا سيدي.

ثم قام الوزير ليدخل إلى داره، ومن خلفه خادمه، يحمل له مصباحًا ينير الطريق، فقد كان الوقت ليلًا.

لم أستمر في تتبع الوزير، فقررت أنا أيضًا العودة إلى برجوان وريدان، وتوقعت أن يذهبا إلى حانوتهما المفضل الذي اعتادا الاجتماع فيه، وهناك لم أجد أي منهما جالسًا فخابت ظنوني وفسد توقعي، فهممت بالرجوع إلى فاطمة إلا أن قدوم ريدان جعلني أعود إلى الحانة.

جلس ريدان في ركنه المفضل منتظرًا قدوم صديقه برجوان، والذي حضر بعد قليل وجلس بجواره ثم سأله:

- ما العمل الآن يا ريدان؟ حضرنا مجلس العلم وقدمنا الهدايا وتقربنا منه.

- لا تتعجل يا صديقي، سيظهر كل شيء في وقته؛ لكن ألم تلاحظ شيئًا؟

- لا، كل ما هنالك حب الطيور والمجالس.

- حب الطيور، هذا هو المقصد.

- ما المقصد في حب الطيور؟!

- المقصد أن الخليفة يحب الطيور أيضًا ويعتز بها.

- وما في ذلك؟

- لو أننا همسنا للخليفة أن وزيره يفتخر بأن ما عنده ليس له مثيل، وأن طيوره كلها أصيلة وما سواه ليس عنده إلا الوضيع منها، فكيف سيكون رد الخليفة؟

صمت برجوان لحظات ثم هتف قائلًا: يا لك من عبقري وصوت ضحكاته يملأ المكان حتى وكزه ريدان.

- انتبه، ستكشفنا يا غبي.

- لم يستطع برجوان إخفاء ابتسامته، حسنًا حسنًا، سوف أصمت وأنتظر خطتك العبقرية.

جلسا قليلًا ثم ودع كل منهما الآخر، على أمل باللقاء غدًا عند الخليفة.

أما أنا فقررت العودة لفاطمة فقد طال بقائي هنا.

عدت إلى فاطمة وقد عصف الشوق بكل خلايا جسدي، فما كنت فيه يعتبر سفرًا على أي حال، هذه المرة لم تكن هناك فاطمة، وجدت نفسي أقف وحيدًا في ساحة الحسين، الناس يتحركون يمينًا ويسارًا، السيارات تملأ الطريق، لا أحد يهتم ولا أحد يشعر بما حدث، لم يشغلني أي شيء من كل هذا، سواء كيف عدت وحدي، أو كيف لأحد لم يلاحظ وجودي، كل ما شغلني هو أين فاطمة؟

تلفت يمينًا ويسارًا، درت في المكان، دخلت المسجد، ومع كل دقيقة تمر كنت أتحرك كالمجنون بسرعة وخفة، أنظر في وجوه النساء وعقلي يعصف به كم أسئلة لا ينتهي..

يئست من العثور عليها؛ فصرخت مناديًا بأعلى صوت أقدر عليه، فاطمة، لكن خوفي من تكرار ما حدث قبل ذلك دفعني للسكوت،

ظللت صامتًا لا أتكلم، وقفت أطالع الناس من حولي ثم قررت الانصراف.

دخلت إلى غرفتي في الفندق، أغلقت المصباح، وألقيت بجسدي على السرير، أغمضت عيني، فظهرت صورة فاطمة أمامي، كلما أغمضت عيني ظهرت من العدم، كأنها ترفض أن أنام.

أخيرًا غلبني النوم، ولم أدر كم مر من الوقت، كل ما علمته أن نور الشمس تسلل من نافذة غرفتي وألقى شعاع ضوئه على عيني، حتى هذا لم أفكر في إغلاقه بإحكام!.

كل شيء قاومته في البداية تحول إلى فكر ينهش في عقلي وروحي، خرجت بحثًا عن كتاب فضاع مني، وجلست في فندق فصرت أتنقل بين الأزمنة، ورفضت التعامل مع فاطمة فانقلبت إلى حب يأسرني أسرًا

لا حلم حققت ولا حب أكتمل، ولا أنا أستطيع أن أعود إلى حياتي مرة أخرى؛ فبعد كل ما كان لا شيء يعود إلى عهده سابقًا أبدًا.

وأخيرًا قررت الخروج إلى ساحة الحسين، يراودني أمل لقاء فاطمة، أو قدومها كما اعتادت أن تفعل، كلما سمعت صوتًا خارج باب غرفتي هممت بالخروج متوقعًا رؤيتها، لكن أقنع نفسي بأنها لو أرادت لأتت

فهي تعرف الطريق جيدًا، ارتديت ملابسي على مهل ونزلت إلى منطقة الحسين أمشي بلا مبالاة، غير عابئ بأي أحد، رغم أنه في قرارة نفسي أتمنى أن أسمع صوتها مناديًا عليَّ، لكن لم يحدث، أكملت خطواتي التي أوصلتني إلى شارع المعز المعروف؛ فقررت أن أغير الأماكن التي أذهب إليها كل يوم؛ فسرت حتى نهاية الشارع من جهة باب الفتوح مع أذان الظهر، دخلت المسجد الموجود أمامي، في البداية حسبته مسجد عمرو بن العاص؛ فهو يشبهه من جهة الساحة الخارجية، لكن غرابة مئذنته غيرت فكرتي تمامًا، كنت أول مرة أرى هذا المسجد الغريب، لم أطل التفكير كثيرًا فأديت صلاتي على مهل وجلست قليلًا أستمتع برطوبة الهواء القادمة، أو لعلي كنت أريح ذهني من التفكير في فاطمة الغائبة. قمت لأنصرف لكن فضولي أثارني لأتفقد هذا المسجد الجديد بالنسبة لي، أعمدته المميزة، وبوابته المتفردة، وفوق هذا كله مئذنة لم أشاهد مثلها في مساجد القاهرة المعروفة بالنسبة لي، سألت أحد المارة عن اسم هذا المسجد العريق، فأخبرني أنه مسجد الحاكم.

كان اسمًا غريبًا بالنسبة لي، فلم سمي باسم الحاكم؟ فقد مر على مصر كثير من الحكام، فأي حاكم منهم هو صاحب المسجد؟! لم أفهم سر

التسمية، ولم أشغل بالي كثيرًا، فأيا ما كان فهو مسجد قديم بديع الشكل، لم أشعر بالوقت وهو يمر في التحرك بين جدران المسجد وأبوابه وساحته، وأخيرًا صعدت على السطح بين قباب المسجد ومآذنه، لفت نظري خيال أحد ما يتحرك بخفة، لم أهتم في البداية، قد يكون أحد الصبية، لكن الأمر المريب حقًّا كان تتبع الخطوات لي أنا بالتحديد. أسرعت الخطى لأختبئ خلف إحدى المآذن المطلة على باب الفتوح منتظرًا قدوم ذلك المتتبع لي، مع اقتراب صوت الخطوات وترقبي وجدت قبضة قوية تمسك بكتفي..

- ماذا تفعل هنا؟

شعرت بالرعب من ذلك الصوت والقبضة الممسكة بي، من أين جاء ومن هو؟ التفت لأرى صاحب الصوت.

كان أحد الجنود المسئولين عن حراسة المسجد، رجل أسمر بملامح أهل مصر، وشارب كثيف، عينان سوداوان، كان الجندي يبدو عليه القلق أيضًا من ذلك الغريب المختبئ خلف مئذنة مسجد!

- قلت لك ماذا تفعل هنا؟

- لا شيء، فقط أشاهد المسجد، أنا محب للتاريخ والآثار.

- حسنًا، ولماذا وقفت هنا خلف المئذنة.

- ليس هناك سبب محدد، فقط ألتقط أنفاسي من كثرة المشي.

لم يبد عليه الاقتناع ولم يطل الكلام، طلب مني الانصراف فالوقت قد اقترب من الغروب، وممنوع التجول هنا في هذا الوقت.

شكرته على حرصه وأدائه لعمله ونزلت إلى ساحة المسجد، اصطففت مع جموع المصلين، صليت المغرب، وقفلت راجعًا إلى مكاني المعتاد، الفندق.

في غرفتي بعد منتصف الليل وقفت في شرفة الغرفة أشاهد حركة المارة، وفي عقلي سؤال واحد، من كان يتبعني؟

تخيلت فاطمة، توقعت أن يكون أخوها علي يظن أننا معًا، أو ربما كنت أتخيل ولم يكن أحد يتبعني من البداية.

قطع عليَّ تفكيري طرقات خافتة على باب غرفتي. تحركت ببطء نحو الباب متسائلًا من الطارق؟

لم ألق ردًّا؛ فرددت بصوت أعلى وأكثر حدة بنبرة تحذيرية من أنت؟

جاء الرد على هيئة طرقات أخرى متتابعة أكثر وضوحًا من سابقتها وصوت عميق يقول، افتح يا عزيز.

اقتربت من الباب مترددًا في فتحه، لكن شجعني كون الطارق يعرفني فقد ناداني باسمي، على كل حال يجب أن أكون حذرًا ففتحت الباب بجزء منه يكفي لإخراج رأسي فقط، لكن ما رأيته خارج الباب كان يفوق الخيال، من بين كل من توقعت أن يطرق عليَّ الباب كان هذا الطارق فوق كل توقع، وأبعد ما يكون عن توقعاتي، أو حتى خيالي، دفعني وفتح الباب ودخل إلى غرفتي في ضوء المصباح، كان هو بشحمه ولحمه، بلحيته البيضاء الكثيفة، وعينيه الزرقاوين، وطوله الواضح، كان هو الشيخ الذي أخذ مني الكتاب...

ألجمت الصدمة لساني للحظات فلم أدر ما أقول وكيف أتصرف، واكتفيت بمشاهدته يدور في الغرفة يطالع في أغراضي يقلب فيها وفي ملابسي، ثم اقترب من منصة الطعام وتذوق بعض اللقيمات، يبدو أنها أعجبته فسحب كرسيًّا ليكمل طعامه، رغم تصرفاته الغريبة ودهشتي التي ما زالت تؤثر على رد فعلي بدأ هو الحديث قائلًا:

- كيف تجد الرحلة يا عزيز؟ كما توقعت؟!

- أي رحلة؟

- رحلة الكتاب والوجوه، هل نسيت سبب خروجك؟

- لا لم أنس، أنت لا تعرف شيئًا.

- هل تعتقد حقًّا أني لا أعرف؟

- نعم بالتأكيد من أنت لتعرف عني أي شيء؟ وأين الكتاب يا لص؟

- لص؟ ألم أقل لك أنك نسيت سبب خروجك والكتاب والوجوه، أم إن فاطمة شغلتك عن رحلتك؟

كان وقع اسم فاطمة على أذني كالصاعقة، فذلك الرجل لم ينفك يلقي عليَّ الصواعق الواحدة تلو الأخرى.

- كيف تعرف فاطمة؟

- كل شيء حدث لك أعرفه يا عزيز .. أنا صاحب الكتاب.

- أنت تكذب بلا شك، الكتاب عمره ألف عام تقريبًا، يستحيل أن تكون أنت مؤلفه.

- حسنًا، دعنا نناقش هذا الأمر لاحقًا لكن أخبرني ماذا تريد أن تعرف؟

- فاطمة.

- ضحك قائلًا هذا متوقع أيضًا، دعني آخذ بيدك، فالصدمات كثيرة عليك وأنت تحتاج إلى مرشد.

قمت معه كالمسحور لا أدري أين نذهب، نزلنا سويًّا إلى ساحة الحسين، أمشي خلفه بلا أي كلام أو سؤال.

نشأ بعقلي قناعة أن الوصول إلى فاطمة سيكون عن طريق هذا الرجل وفقط، إذن لا يهم، سأكون معه وأسير خلفه وأفعل أي شيء، ما دمت سألتقي بها، وهذا هو المهم.

انطلق الشيخ بقوة رغم كبر السن الواضح عليه، لكن يبدو أن ضخامة جسده ليست من فراغ، فالطول الفارع والقوة المحسوسة في قبضة يده الممسكة بكف يدي توحي بأن هذا الرجل ليس رجلًا عاديًّا، انتبهت إلى الطريق الذي يمشي فيه، خرج من ساحة الحسين وخان الخليلي والآن نحن في شارع المعز، الناس من حولي يتسامرون وبعضهم يجلس على المقهى يدخن، وآخرون يتضاحكون فيما بينهم، شاب وفتاة يمسكان بيد بعضهما بمحبة وليدة تنشأ بينهما، أما الشيخ فكان مستمرًا في مشيته السريعة، لا يلتفت إلى شيء، يعرف جيدًا إلى أين يتجه، بعد قليل عرفت أيضًا؛ فقد اقترب الشارع من الانتهاء، أعرف هذا المكان جيدًا فقد رأيته في الصباح.

كان المكان المقصود هو المسجد الذي صليت فيه ظهر اليوم، نعم هو مسجد الحاكم.

لاحظت أن الشيخ يعرف طريقه جيدًا كأنما نقش تفصيل المكان في عقله، دخل إلى حمامات المسجد وطلب مني الوضوء لنصلي سويًّا. توضئنا وصلينا وجلس متربعًا ناظرا إليَّ وجلست أمامه كطالب يجلس إلى معلمه، صمت طويلًا وأنا مترقب لكلامه قد يقول لي شيئًا عن فاطمة، هم بالحديث وانتظرت كلامًا عنها.

– أنت مشتت يا عزيز، نسيت سبب مجيئك للقاهرة، نسيت الكتاب، نسيت رحلتك، التفت إلى علل أخرى فضللت طريقك.

– لكنك قلت أنك تعلم ما حدث لي، ما من شيء أخطأت به، سرت في طريقي وسعيت نحو هدفي.

– لكنك التفت.

– كانت أشياء خارجة عن إرادتي.

– احفظ هذه العبارة جيدًا (ملتفت لا يصل)

– ماذا تعني؟

– يعني أنك إذا كنت مسافرًا إلى هدف معين وكنت تلتفت يمينًا ويسارًا تشغلك الشواغل وتهتم لأمور غير هدفك الأساسي فلن تصل إلى وجهتك أبدًا وستضل الطريق كما حدث معك تمامًا، نعست ولم تهتم

بحماية الكتاب، وانشغلت بفاطمة وبرجوان، وفقدت شغفك بالكتاب والوجوه.

– معك حق.

– أعلم أنك تريد أن تعرف أين فاطمة، لكن دعني أولا أريك شيئًا.

قمت معه فخرجنا إلى الساحة، ثم صعد على سطح المسجد ودخل إلى غرفة صغيرة بجوار المئذنة. تعجبت من وجود غرفة في مكان كهذا، خاصة أنني صعدت بالفعل إلى السطح بالأمس ولم ألاحظ وجودها. بداخل الغرفة كان هناك سرير خشبي بسيط، عليه فرش قديم، مصباح يعمل بالزيت كتلك القناديل القديمة، غرفة تليق برجل عجوز، إذا رأيته للوهلة الأولى حسبته درويشًا أو رجلًا مسكينًا. وهذا ما كنت أعتقده أيضًا، لكن أي اعتقاد مبني على مجرد التوقع هو اعتقاد باطل.

أشعل الشيخ مصباح غرفته وأشار لي بالجلوس، فجلست أمامه فحدثني.

– هل تحب فاطمة؟

– نعم، أحبها.

– لكنها تركتك.

- قد تكون لديها حجة للغياب.

- وإن لم تكن لديها حجة وتعمدت البعد عنك؟

- سأسامحها، فقط احتاج إليها لترجع.

- وإن لم ترجع؟

- سأبقى منتظرًا لها.

- لك ما أردت، فلتنتظر كيفما شئت، لكن الأولى أن تكمل رحلتك ربما تقابلها في الطريق.

- كيف ذلك؟

- تعالَ نذهب إلى برجوان وريدان وهناك سترى ما أردت.

- ما علاقة برجوان بفاطمة؟!

- لا تتعجل، فقط انظر في عيني.

هذه المرة كان الشعور مختلفًا عن فاطمة، الرجل يملك عينًا مخيفة رغم امتلاكها لنفس اللون، هذه المرة شعرت بأنني أسقط في بئر عميق، بئر ليس له قرار، رغم اختلاف الشعور لكن النتيجة كانت واحدة.

كنت هناك أقف وأمامي برجوان وريدان يتحدثان في الحانوت، وعن يساري كان الشيخ لم يتركني أذهب وحيدًا، وبرر ذلك بأنني أحتاج إلى مرشد كي لا أضل طريقي مرة أخرى.

وجدت ريدان يتحدث مع العزيز يهمس إليه، فأخذ الشيخ بيدي قال تعال استمع جيدًا لما يدور.

كان العزيز يسأل ريدان عن درس العلم الذي حضره مع برجوان عند الوزير يعقوب.

– استفدت كثيرًا يا مولاي، فقد منَّ الله عز وجل على وزير الدولة بعلم غزير.

– هو صاحب علم وفقه وأدب، احرص على الاستمرار في الحضور مع برجوان، ومن أنهى منكما كتابًا فله مكافأة من عندي.

– أدام الله بقاء الخليفة، لقد أعجب بنا الوزير وأهدانا من طيوره النادرة.

ضحك الخليفة قائلًا إن الوزير يحب الطيور مثله تمامًا.

– ما رأيك يا مولاي في مسابقة بين الطيور التي يهواها خليفتنا وطيور الوزير، سيظهر فيها ندرة طيور مولاي وفضلها عما سواها.

– أحسنت يا ريدان ناد على الوزير.

بصوت جهوري مرتفع نادى ريدان على وزير الدولة يعقوب بن كلس.

دخل يعقوب ناظرًا في الأرض، يقبل الأرض بين يدي الخليفة، داعيًا له بصلاح الأمر وطول العمر.

فتبسم الخليفة لمقدمه وحياه قائلًا:

- أهلًا بصديقي ووزيري.

- أنت تشرفني بكلامك عني يا مولاي.

- ما رأيك أن تتسابق طيورنا اليوم في حديقة القصر.

- لا طير يسبق طير الخليفة، مولانا له السبق أينما حل أو ارتحل.

قهقه الخليفة فرحًا بكلام الوزير له الذي استأذن وأرسل أحد الخدم لإحضار طائر من داره.

دخل الخليفة أحد الأماكن ومشيت خلفه مع الشيخ فوجدنا مكانًا ممتلئًا بالطيور والحيوانات يشبه مكان الوزير لكنه أكبر وفيه تنوع أكثر.

اختار الخليفة أحد الحمائم، بيضاء ناصعة، بها خيط أسود ربط في أحد ساقيها. ثم خرج بها إلى الحديقة يحملها بنفسه، يربت بكف يده على ريشها الناعم.

وجد الوزير يقف في الحديقة منتظرًا ويحمل في يده حمامة أخرى، لكن لونها بين الأبيض والأسود، شكلها يبدو عليه الندرة والجمال، وهو ما وضح في عين الخليفة الناظر بشدة لما في يد الوزير.

وقف الوزير والخليفة متجاورين، وأطلق كل منهما طيره عاليًا، بدا الحماس على وجه الخليفة منتظرًا بشدة عودة طائره، أما الوزير فقد وقف يضرب يده ذات اليمين وذات اليسار بأعين زائغة وأنفاس متلاحقة.

عاد طائر الوزير أولًا ومن بعده جاء طائر الخليفة، وبدلًا من أن يفرح الوزير لفوز طائره وفوزه بالجائزة المنتظرة بدا عليه الاغتمام والحزن.

انصرف الخليفة بدون أن ينطق بكلمة واحدة، ويتبعه ريدان بمظلته المعتادة، ومن بعدهم باقي الحاشية.

وقف الوزير حائرًا لا يدري كيف يتصرف، لم يدم وقوفه طويلًا فأخذ طائره وانصرف إلى بيته، في القصر كان ريدان يخفف عن الخليفة مرارة الهزيمة، مبررًا ذلك بأن السباق بسيط ولا يستدعي كل هذا الغضب.

أما الخليفة فلم يقتنع بكلام ريدان إذ أنه يحب الفوز في أي حال وإذا تسابق في شيء كان لا بد أن يكون الفائز.

فقال ريدان:

- لا تحزن يا مولاي فالأمر ليس بيدك، فكما تعلم أنني دخلت بيت الوزير، وكان يفتخر بأنه اشترى كل طير ذي أصل نادر، ولم يبق إلا

الطيور ذات الأصل الوضيع، وفي لحظة، أمر الخليفة بحبس الوزير يعقوب.

كان الخبر كالصاعقة على الجميع، فالوزير قبل أن يكون معروفًا بكفاءته وفطنته، عرف بصادقته للعزيز وحب العزيز له، ورغم هذا التقدير والحب من الخليفة للوزير إلا أن ذلك لم يمنع الخليفة من سجنه وكان مبرره أن الوزير ظن أن صداقته هيأت له أنه كالخليفة، ومن يدري؟! ربما بعد أيام يظن نفسه كالخليفة!

وبالفعل ذهبت مجموعة من الجنود لدار الوزير، وأمسكت به ووضعته في السجن.

كان أشد الناس فرحًا بما حدث برجوان وريدان؛ فقد نجحا في مسعيهما وتخلصا من الوزير، وانتظر كل منهما اللحظة التي يجعل الملك فيها أحدهما وزيرًا له؛ فينال السلطة والمال والزواج من ست الملك.

لكن المفاجأة كانت في تعيين عيسى بن نسطورس وزيرًا.

أسقط في يد كلٍّ من برجوان وريدان، فلم يتوقعا بأي شكل من الأشكال تعيين بن نسطورس وزيرًا؛ فهو اسم لا يذكر كثيرًا كما أن اختلاف الديانة يجعل الأمر مستبعدًا، لكن الخليفة كان قد اتخذ قراره بالفعل واستمر وزيرًا لثلاثة أشهر.

بعد مدة جاء خادم الوزير معه رسالة يريد أن يسلمها للخليفة، لم يعجب ريدان أن يستلم الرسالة ويوصلها، لكنه بأي حال ليس لديه خيار آخر، فأخذ الرسالة وانتظر خروج الخليفة من غرفته ووقف بجواره خادم الوزير.

بعد قليل خرج الخليفة فأعطاه ريدان الرسالة فقرأها الخليفة بصوت عال:

(مولاي المعظم كما عهدتك دائمًا، السباق للخير والعفو والصفح، وكما عهدتني خادمك وحافظ سرك.

قل لأمير المؤمنين الـذي ... له العلا والنـسب والثاقب

طائـــــرك السابق لكنه ... جـــاء وفي خطبته حاجب

والسلام عليكم يا أمير المؤمنين) .

كانت علامات الفرح تظهر على وجه العزيز وهو يقرأ الرسالة، وكلما أضاء وجهه بالفرح أظلم وجه ريدان من الحزن والغضب، أمر الخليفة بإخراج الوزير من السجن، وعودته لمنصبه مرة أخرى، وإعطائه هدية من الخليفة تعويضًا له عن فترة السجن.

قبل الخادم الأرض بين يدي الخليفة، ورجع بظهره إلى أن خرج من قاعة الحكم، أما ريدان والخليفة فلم يكن بينهما أي حوار، فقط مجرد نظرة من الخليفة لريدان، وعلى ما يبدو فقد فهم الخليفة ما يدور في رأس ريدان وعلم ريدان أن الخليفة لن يعطيه فرصة ثانية لتكرار الخطأ وأن المرة القادمة سيكون ثمن خطئه رأسه.

بعد المغرب اجتمع برجوان وريدان في حانتهما المعتادة، بدا عليهما الهم والخوف.

- هل علمت ما حدث يا برجوان؟
- علمت من الخدم، لم أكن أتوقع رد الخليفة.
- لقد أمر له بهدايا وجلس معه كالمعتاد يتضاحكان.
- الأخطر لو وصل إليه أننا نتقابل فهو لن يرحمنا.
- صدقت سنتوقف عن اللقاء هنا.
- وماذا ستفعل مع درس الوزير؟
- لا أعلم.
- حسنًا، سأذهب الآن وانتبه لأي خطوة بعد ذلك.

قام برجوان وخرج من الحانة وبقي ريدان جالسًا لا يتحدث، فيما بدا عليه القلق الشديد.

أمسك الشيخ بيدي وقال تعال معي أريك شيئًا، مشينا خلف القصر من الجهة اليسرى في أحد الشوارع، حتى وصلنا إلى نهاية الطريق أمام باب الفتوح، وجدت مسجدًا لم يكتمل بناؤه بعد، كان هو نفس المسجد الذي قابلت الشيخ فيه .. مسجد الحاكم.

انعطف الشيخ يمينًا ويسارًا داخل المبنى غير المكتمل حتى وصل إلى الغرفة التي جلسنا فيها ثم سألني:

- هل تعلم لماذا يعادي برجوان وريدان يعقوب؟

- لأنه كما قالا يميل إلى كتامة.

- من كتامة؟

- لا أعلم، ربما مجموعة ما، أو شيء من هذا القبيل.

- كتامة هي قبيلة من المغرب، والديلم من جهة العراق، والجند كما ترى جزء منهم من الديلم، وآخرون من كتامة، وكل منهم يريد أن يحوز الفضل لنفسه والوزير يميل لكتامة.

- إذن لماذا يقولان على الوزير أنه يهودي؟

- لأنه كان يهوديًّا وأسلم، وتعلم علوم الدين، وصار يعلمها كما ترى، وكان وزيرًا أيام كافور الإخشيدي.

- فهمت، لكن العزيز يبدو أنه يحبه.

- بالتأكيد، هو أفضل من تولى الوزارة، وهو أمين على مال الدولة.

في الصباح أخذ الشيخ بيدي لنمشي سويًّا في شوارع القاهرة، كان يبدو على الناس الرخاء والرفاهية.

سوق للسمك وآخر للحيوانات والطيور الغير معتادة، والزجاج الملون، الشوارع ممتلئة بالبائعين والمشترين.

وأخيرًا قرر الشيخ أن نعود إلى برجوان.

كان برجوان جالسًا في مجلس الوزير يعقوب داخل داره، معه أقلام وأوراق، ويدون ما يقوله الوزير بحرص شديد، يناقشه ويسأله، والوزير يجيبه باهتمام، وبرجوان يبدو عليه الحرص الشديد.

فهمت أن برجوان اختار حضور دروس الوزير، فيما امتنع ريدان عن الحضور بعد موقف سباق الطيور مع الخليفة.

بعد انتهاء الدرس توقعت أن يلتقي ريدان وبرجوان في الحانة كما اعتادا ذلك كل ليلة، لكن الغريب أن برجوان انصرف من الدرس إلى الجامع الأزهر أقام فيه طويلًا يصلي ويدعو، ثم انتهى وانصرف إلى بيته.

في اليوم التالي صادف ريدان برجوان في القصر ولم يلق أي منهما التحية على الآخر، فقد انتهت صداقتهما وتغير الحال، وأصبح برجوان حريصًا على تعلم العلوم الشرعية والحساب والسياسة، وريدان صار حامل المظلة للخليفة وفقط، حتى الخليفة لم يعد يهتم لريدان كما كان في السابق.

استمرت الأمور كما هي، طلب علمٍ من برجوان، وعمل من ريدان ومقابلات تتم بين حين وآخر مع بنت العزيز ست الملك، وفي يدها أخوها الصغير، حتى جاء صباح لم يحضر فيه الوزير إلى القصر، سأل الملك عن الوزير فلم يعلم أحد ما حدث، فجاء خادم يخبره أن الوزير مريض بشدة ولا يقدر على الحراك، فزع الخليفة من الخبر وأرسل أحد الأطباء مع الخادم وانتظر عودة الطبيب الذي جاء بعد فترة وأخبره الفاجعة، أصيب الوزير بالسكتة فلم يعد يتكلم، وفعل به الزمن فعلته فأقعده عن الحركة، أصاب الحزن الخليفة وأرسل له عددًا من الأطباء لكن كانت الإجابة واحدة، الوزير يقترب من نهايته وعما قليل سيكون في عداد الموتى.

لم يقتنع الخليفة وقام بإحضار أطباء من دول مختلفة لعل أحدهم يستطيع علاج الوزير، بعد فترة استطاع أحدهم إزالة السكوت عن لسان الوزير ففرح الملك أشد الفرح، وأمر له بأعظم الهدايا، وقرر الذهاب لزيارة الوزير في داره، استمرت متابعتي مع الشيخ للأحداث الجارية ولم أطلب أن أعود وهو لم يسألني إذا رغبت في العودة.

في بيت الوزير كان الخليفة جالسًا بجواره بينما كان الوزير مستلقيًا على سريره لا يقوى على الحركة، وبدا عليه الوهن والضعف، وصوته يخرج منه بصعوبة، أما الخليفة فعينه تكاد تبيض من كثرة الدموع، فبادره الخليفة

– وددت لو أن العمر يباع فأشتريه لك، ووددت لو أفتديك بملكي وولدي، فهل لك وصية توصيني بها يا يعقوب؟

فبكى يعقوب، وبكى الخدم الواقفون حولهما.

– أنت أرعى لحقي من أن أسترعيك إياه يا مولاي، وأرأف بولدي من بعدي، لكن أوصيك بوصايا، احرص على العدل بين الناس، وكن رحيمًا بهم، فالراحمون يرحمهم الرحمن، لا تبادر بحرب، وأقنع بالسلم إن سالموك، وقرب برجوان منك فهو فارس ذو علم وفطنة.

واقترب أحد خدمه منه وهمس له بكلمات، فذهب وأحضر ورقة وسلمها للخليفة فقرأ ما فيها.

احذروا من حوادث الأزمان وتوقوا طوارق الحدثـــان
قد أمنتم مـــن الزمان ونمتم رب خوف مكمن في أمان

وخرجت روح الوزير إلى خالقها، ساد الصمت على الجميع، ولم يعد مسموعًا غير صوت نحيب الخليفة يعلو على صوت بكاء الخدم وأهل بيت يعقوب.

قام الخليفة وأمر خدمه بإحضار أفضل أنواع الحنوط والكافور وعطوره الخاصة، وأمر مناديًا ينادي في الناس أن صلاة الجنازة على يعقوب بن كلس وزير مصر وحافظ سر العزيز، ستكون اليوم مع صلاة العصر.

وعند الصلاة وقف الخليفة يصلي ويدعو لوزيره ومن خلفه يقف برجوان وريدان والوزراء، ومن بعدهم تكاد المحروسة بأكملها تقف معزية ومودعة لوزيرهم الأمين، سار الخليفة مع النعش من الأزهر حتى باب النصر، وحمل جثمان وزيره بيده وأدخله قبره، ووقف بعد انصراف

الناس على قبر الوزير وقتًا غير قليل، وأنفق آلاف الدنانير صدقة عنه للناس ولفقراء المسلمين.

استيقظ الناس في اليوم التالي على صوت منادٍ يخبرهم بأوامر الخليفة

أولًا:- تغلق الدوواين لمدة ثلاثة أيام.

ثانيًا:- عتق كل عبيد وإماء الوزير.

ثالثًا:- تم ترقية برجوان ليكون قائد الحرس للخليفة.

رابعًا:- تعيين عيسى بن نسطورس وزيرًا للدولة.

دعا الناس للوزير بالرحمة ولبرجوان وعيسى بالتوفيق والسداد، وهمس البعض فيما بينهم أن زوجة العزيز المسيحية هي التي اختارت عيسى انتصارا منها لدينها، وقال آخرون إنه عين لكفاءته، وأيًّا ما كان سبب الاختيار فالمهم لنا هو استقرار البلاد وراحة العباد، واجتمع الجميع على الدعاء للخليفة بالبقاء وطول العمر.

أما برجوان فقد اتجه فور علمه بالخبر إلى محبوبته ست الملك والتقيا في حديقة القصر كالمعتاد.

كان اللقاء مختلفًا عما اعتدت منهما؛ فبرجوان يقف على بعد خطوات منها يكلمها دون أن ينظر مباشرة إليها، رغم اختلاسه للنظر إلى عينها

بين حين وآخر، ومرات أخرى يختلس نظرات لوقفتها، ومن ناحيتها لم تتغير ست الملك، تقف وتتكلم بثقة وقوة كبيرتين، تهنئ برجوان على نجاحه وتجديد ثقتها به بأنه ذات يوم سيكون أعلى شأنًا وأكثر نفوذًا وتعرض عليه أن تتوسط عند والدها ليرفع مكانته أكثر، فيرد برجوان:

- لا يرضيني يا مولاتي الوصول إليك بواسطة منك، إن أردتك حقًّا وجب علي البذل والتعب حتى أصل إليك.

- هذا ما أحبه فيك يا برجوان، أحب حرصك على الوصول إليَّ، أحب طموحك، وأخيرًا طلبك للعلم.

- وأنا أحبك أنت يا ست الملك ومولاتي.

ابتسمت في خجل وانصرفت وأخاها الصغير، وانصرف برجوان.

استأذنت الشيخ في أن نعود، فربما جاءت فاطمة تسأل عني، أو ربما عرفت من أخبارها شيئًا يسرني، وأذن لي الشيخ فعدنا إلى غرفته الصغيرة الواقعة بمسجد الحاكم بأمر الله بشارع المعز، وخرجت منها أمشي وحيدًا في ظلام القاهرة،

بعد ما رأيته وما حدث لي صرت مرتعبًا من اسم القاهرة، فصار الاسم يعني لي قهر النفوس وقهر الأحبة، صرت وحيدًا مرة أخرى والقلب يملؤه الفراغ، ولهفة النفس على فاطمة لا يعوضها شيء.

لا أعلم إلى أين أتجه، فقدت الرغبة في العيش، وانقلب الأمل ذكرى، والأنس بالحب إلى وحشة، كنت أنتظر النهار لألقاها والليل لأحلم بها، فصار النهار لا قيمة له والليل لمجرد الذكرى، لماذا فعلتِ بي هذا يا فاطمة؟

كيف هان عليك الغياب؟ ولا أدري ماذا أصابك؟ ثم إن الشيخ يقول إنه يدري كل شيء، فهل كنت تحكين له عن حبي، أم كنتِ تحكين عن حلمي؟ ذكرياتك تنهش في روحي، واسمك يسيطر على عقلي، ومرضت بك يا فاطمة.

دخلت غرفتي أجر أقدامي جرًّا وأدفع نفسي لأصل إلى سريري، وإن كنت لا أرغب في الوصول ولا في الحياة كلها.

تمددت فتراءت أمام عيني صورتها، وهمس في أذني صوتها، فخلق فيَّ باعثًا ليوم جديد، وولد فيَّ أملًا باللقاء، أو على الأقل خبر سعيد يطفئ نار القلب ويذيب حزن الروح.

ومع النعاس طرأ في ذهني اسم لا بد أن يكون عنده الحل، فقمت جالسًا كأنما لدغتني أفعى، هاتفًا بصوت يسمعه أهل ساحة الحسين فضلًا عن أهل الفندق (علي)، أخوها.

كيف نسيت أخاها علي الذي يعمل بالمقهى؟ لا بد أنه يعلم أين أخته. هممت بالذهاب إليه وردني ظلام الليل وتأخر الوقت، وصبرت نفسي قائلًا غدًا إن شاء الله أعرف الخبر اليقين، ولأول مرة منذ اختفاء فاطمة أنام بروح جديدة، روح أمل وانتظار وترقب.

مع إشراقة شمس الصباح الجديد كنت جاهزًا للذهاب إلى المقهى الذي يعمل به علي، مشيت مسرعًا وكما هو متوقع كان المقهى لم يفتح أبوابه بعد، ظللت أدور حوله يمينًا ويسارًا إلى أن لمحته قادمًا من بعيد فركضت نحوه كطفل يبحث عن أمه مناديًا أثناء ركضي .. علي.

لم يظهر عليه أي تأثر لمقابلتي فتعامل ببرود شديد بدون حتى أدنى ابتسامة أو كلمات الترحيب المعتاد تبادلها بين الناس، مددت يدي مسلمًا عليه فرفع يديه بتثاقل كبير ليرد السلام وكل ما نطق به كلمة واحدة.

- أهلًا.

تجاهلت فتوره وتعامله وسألته مباشرة:

- أين فاطمة؟

- لا علم لي، ألم تكن معك وتتقابلان منذ فترة؟! المفترض أن أسألك أنت، أين أختي؟

- لا أعلم، اختفت منذ أيام وحسبتها أتت إليك.

- لا، لم تأت.

فجأة قام واقفًا بأدب لا يتناسب مع فتوره في مقابلتي وقال بترحاب شديد:

- أهلًا أهلًا بسيدنا، تفضل المكان مكانك ونحن خدامك.

- التفت ففوجئت بالشيخ واقفًا خلفي يدقق النظر بعينيه الزرقاوين في وجهي.

- اجلس يا سيدنا.

قالها علي بخضوع غريب يختلف عن كل مرة تقابلت معه فيها، فلم يظهر أبدًا أنَّ لأحد ما له هذا السلطان عليه، خاصة ذلك الشيخ، فتساءلت ماذا يملك هذا الرجل حتى يكون له ذلك التأثير الكبير؟!

- بصوته العميق المخيف رد الشيخ لا، سننصرف أنا وعزيز فنحن لم ننتهِ من رحلتنا بعد، وسنعود إليك عما قريب.

ولم يناقش علي ولم أناقش أنا؛ بل سرت مشدوها خلف ذلك التأثير الغريب على الناس، وتبعته إلى غرفته المعتادة بمسجد الحاكم.

لم يتحدث الشيخ عند دخولنا الغرفة؛ بل قام إلى مصباحه الزيتي وأضاءه ووضعه على منضدة صغيرة بجوار الباب الخشبي المتهالك، ثم تحدث إليَّ:

- هل ما زلت تهتم بوجوه الناس يا عزيز؟

- الحق أنني منذ قدمت إلى هنا انشغلت قليلًا بما كان أيام العزيز وبرجوان.

- كما أخبرتك يا عزيز، ملتفت لا يصل، لا تنس أبدًا الوجوه، فكما تعلم كل وجه له قصة خلفه مكتملة الأركان، قد تكون نفس قصتك بأشخاص مختلفة أو قد يكون للإنسان الواحد وجوه مختلفة، كل وجه منه له قصة.

- نعم فكرت في ذلك أيضًا، فالوجوه كتب غير مقروءة.

- والأهم أن تهتم بعناوين الكتب، أعني الوجوه.

- وما هي عناوين الوجوه؟

- عيون أصحابها، فالأعين تنبؤك بقصة صاحبها.

- لكن بعض العيون زجاجية لا يظهر عليها أي قصة أو حكاية.

- ستأتي لحظة ما ينكسر فيها الزجاج المصطنع على الأعين، وعليك أن تنتظر هذه اللحظة.

- وما الفائدة من كل هذا؟

- الفائدة الكبرى أن تصل إلى ما تريد، فتستغل كل قصة أمامك وتستخدمها بالشكل الذي يوصلك إلى مبتغاك.

- وأنت أيها الشيخ ما مبتغاك؟

- ستعرف كل شيء في وقته، لكن الآن دعنا نذهب إلى برجوان فقد حدث هناك حدث مهم يجب أن تعرفه.

- وماذا يهمني؟، فما يحدث لبرجوان، الآن أنا عزيز، وما كنت عليه قديمًا قد انقضى.

- ما حدث لبرجوان سيعلمك ما جرى لفاطمة، لكن هذه المرة سنتأخر قليلًا فالحدث كبير ومهم.

كان لوقع اسم فاطمة علي كالسحر فلم أفكر كثيرًا ولم أهتم بأي شيء سوى ما حدث لبرجوان.

عدلت جلستي لأكون مقابلًا له، سأغرق في بئر هذه المرة ولا أعلم لماذا تبدل الشغف مع فاطمة إلى خوف مع الشيخ .. تذكرت شيئًا فناديته يا شيخ ما اسمك؟

ابتسم بمكر وقال منصور يا عزيز، اسمي منصور، هيا بنا.

نظرت في عينيه وفي لحظات كنت أقف في قصر العزيز مع برجوان.

- مولاي تم تجهيز الأسطول الجديد المتجه إلى حلب.

- على بركة الله يا برجوان نتحرك صباح الغد إن شاء الله.

في صباح اليوم التالي وعلى الشاطئ كانت السفن راسية، يبدو عليها التجهز، حركة الجند الكثيفة أظهرت حجم التجهيزات، لكن عاصفة قوية أتت فصارت السفن يضرب بعضها بعضًا، حتى غرقت السفن ومعها كثير من الجنود، وقف العزيز غير مصدق لما حدث وهو يضرب كفيه على ما أنفق على سفنه وتجهيزاته.

وقال مصبرًا نفسه ومن حوله (إن الله إذا أراد شيئًا هيأ له الأسباب، والله تعالى لم يرد لنا الذهاب، فالحمد لله على كل حال).

عاد العزيز إلى القصر ودخل إلى غرفته وأغلقها دون الناس، ولما تأخر دخل أحد الخدم يطمئن عليه ويسأله إذا كان يحتاج شيئًا، إلا أنه خرج صارخًا بأن مولاه يبدو عليه التعب الشديد.

كان صوت البكاء يسيطر على الجميع، برجوان وست الملك التي كانت تمسك بيد أخيها الصغير، ثم جلست على أحد المقاعد، واحتضنت أخاها وهي تربت على ظهره قائلة:

- لا تخف يا منصور سيكون والدنا بخير إن شاء الله.

انحنى برجوان على الفتى الصغير يطمئنه بدوره ويطمئن ست الملك.

- أرسلت في طلب أفضل أطباء بيزنطة ومعه أفضل أطباء مصر سيكون بخير أعدكم.

- حسنًا، فعلت يا برجوان، كن معنا دائمًا؛ فنحن نحتاج إليك.

- أنا معكم دائمًا يا مولاتي.

من بعيد كان يقف ريدان يختلس النظر إليهم، ست الملك تجلس، أمامها الطفل الصغير منصور، وبرجوان يقترب منهم ويحدثهم كأنه فرد من أفراد الأسرة.

كان الوضع في القصر لا يسعد أحدًا، حركة دائبة، الكل يبدو عليهم ملامح القلق والترقب، حتى جاء الطبيب فترك الجميع ما كانوا يفعلونه ووقفوا على باب الغرفة ينتظرون بشرى الطبيب، مر الوقت ولم يخرج، فتبدل الترقب لقلق عاصف وخوف مستمر، تكلمت ست الملك موجهة كلامها لبرجوان.

- لم تأخر الطبيب يا برجوان؟!

- لعله خير يا سيدتي، سنعرف عما قريب.

رفعت ست الملك يدها إلى السماء متضرعة منادية (يا رب ارفع عنه ما به من ضر، فأنت أرحم الراحمين، اللهم إنه عبدك وابن عبدك، نشر

دينك ودافع عن أهل بيت نبيك، ونشر العدل بين العباد، وأقام الرحمة في البلاد، فارحمه يا أرحم الراحمين واشفه فأنت الكريم).

ومن خلفها يقف أهل القصر متضرعين، خاشعين، رافعين أكفهم إلى السماء، مرددين آمين آمين.

لكن إذا حان الأجل فلا قدرة لأحد من البشر على رده، خرج الطبيب وعلى ملامحه كان الخبر، لكن الجميع انتظر كلامًا محددًا يوضح لهم الأمر، وقد كان، أخبرهم الطبيب بوفاة العزيز.

فأمر برجوان الكاتب أن يكتب بوفاة ملك مصر، العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي، يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر رمضان، عن عمر أربعة وأربعين عامًا، قضاها في خدمة بلاد المسلمين، ونشر العدل والرحمة بين الناس.

وفي الجنازة خرج أهل مصر مودعين ملكهم، داعين له بالرحمة والمغفرة، متحدثين فيما بينهم أنهم لم يروا منه إلا خيرًا، فكان نعم الملك، ونعم الخليفة.

لكن كان السؤال الذي يعصف بالأذهان ولا أحد يستطيع الإجابة عنه، من الخليفة القادم؟

وقف اثنان من التجار يتحادثان، فقال الأول:

– المشكلة يا جعفر في صغر سن ولي العهد منصور، وبالتالي يحتاج إلى من يعاونه في الحكم، وغير مطروح فكرة أن تتولى ست الملك الحكم، لاعتبارات كثيرة، إنها امرأة أولًا، وثانيًا صغيرة السن ليس لها الخبرة الكافية، ثالثًا وجودها علامة على ضعف البلد.

– صدقت يا أبا محمد بين ليلة وضحاها، تصبح مصر بلا حاكم، بعد أن كان حكامها ملء السمع والبصر، من المعز والعزيز وقبلهم كافور، لنا الله في تغيير الحكام.

– نسأل الله أن يرزقنا حاكمًا رحيمًا، يحفظ لنا حقوقنا.

– آمين، وأي حاكم سوف يأتي سنتقبله، المهم ألا نبقى هكذا بلا حاكم!.

كنت أدور على حوانيت المصريين ومجالسهم، الكل يتحدث عن الحاكم المقبل، لا يدرون أيهم سيحكمهم، لكن الكل متفق على أن أي حاكم سوف يأتي سيتقبلونه ويدعون له، لم أسمع في أي مجلس أحدًا من المصريين يرفض وجود حاكم جديد، اللهم إلا بعض الاعتراضات المتناثرة على عيسى بن نسطورس بسبب ديانته وتفضيله لبني دينه، لكن كان الناس يردون على أصحاب هذه الادعاءات.

أصبحت البلاد في حالة غريبة، فوضى بسيطة تبدأ في الظهور، لص يسرق شيئًا ويركض دون أن يلاحقه أحد، جنود كسالى في حاراتهم لا يتحركون للقبض على اللصوص في الليل، أصبحت الحوانيت تغلق مبكرًا خوفًا من القتلة واللصوص، لا أحد يأمن على نفسه أو أهله، واختفت مجالس السمر ونقاشات الرجال وحل مكانها الخواء للشوارع والهجر للحوانيت.

في القصر لم يكن الأمر يختلف كثيرًا، فالرجال في القصر الشرقي لا يقومون بأعمالهم، ولا أحد منهم يبحث عن الدووابن وعن أعمال الناس، الوزراء لم يأتوا إلى القصر، والجنود بدلًا من وقوفهم على سور القصر أصبحوا ينامون على السور ويتركون حراساتهم.

وفي القصر الغربي لم يختلف الوضع كثيرًا، الجواري فقط يقمن بأعمال الطهو للقصور، وست الملك تجلس في غرفتها مع أخيها تحتضنه وتبكي، وترفض أن تذوق طعامًا، وفي الوقت نفسه ترجو من أخيها أن يتناول طعامه حتى يكبر ويصير فارسًا.

وقفت أنظر وأنا أتعجب من تبدل الأحوال، سبحان الله، بين غمضة عين وانتباهتها يتبدل الحال هكذا؟ فيصبح القصر الذي كان يضج

بالحركة ساكنًا!، وبدلًا من جلسات السمر للخليفة بين الشعر والأدب والسياسة يجلس الجند بكسل وتراخ؟ بعد أن كان العزيز يجهز سفنًا للحرب ينام الجند في بيوتهم؟ وبدل الأمن يسود الخوف؟

ورغم كل هذا يتقبل أهل القاهرة أي حاكم يأتي؟ وَهُم رغم قلقهم وخوفهم يصبحون يومهم، يفتحون حوانيتهم، ويبيعون ويشترون، ويخرجون لصيد السمك فيأتون به والناس تشتري، فلا هم تأثروا بغياب الحاكم، ولا أوقفوا حياتهم انتظارًا لقدومه، وتعاون الناس فيما بينهم لحماية أنفسهم، تاركين للجند شوارعهم ينامون فيها. لكن الأغرب كان الجنود الذين توقفت رواتبهم فتحولوا إلى ناهبي أرزاق الناس، وانقلب حالهم من نشر الأمن لنشر الخوف والخلاف فيما بينهم، فتجد فجأة مجموعة من الجنود من أهل كتامة يتقاتلون مع جنود أُخَر من أهل الديلم، وبين أولئك وهؤلاء يقف أهل مصر سائلين الله زوال الغمة والنجاة بأنفسهم من القتال.

وسط كل هذا الظلام كان هناك فارس ينظر بعين السخط إلى أحوال البلاد والعباد، ويحاول أن يجد حلًّا للخروج من كل هذا، وأخيرًا قرر التوجه للحديث مع ست الملك لإخبارها برأيه فيما سيكون.

وقف برجوان على باب القصر الغربي يطلب لقاء الأميرة ست الملك في أمر هام .. و كان اللقاء.

وقف برجوان أمام ست الملك المتشحة بالسواد حزنًا على أبيها وفي يدها أخيها الصغير منصور ملتصقًا بها.

بدأ برجوان حديثه:

- حفظك الله يا مولاتي، الحزن يضر عينيك.

- لم يعد للحياة قيمة يا برجوان، فقدت أبي والبلاد حالها كما ترى.

- إن فقدت أباك فلم تفقديني، فما زلت المحب لك، وكما وعدتك فأنا دائمًا بجوارك.

- أدام الله وجودك يا برجوان، لكن الحال كما ترى ولا أدري كيف أتصرف فالملك يضيع مني.

- إذن دعينا نتزوج وأكون خادمًا لك، وحارسًا على ملكك.

- ويحك، أتزوج وأترك أخي؟! وكيف نتزوج والحال كما ترى؟

- هذا ما كنا اتفقنا عليه.

- نعم، لكن الآن الوضع تغير، أبي قد مات، ولا أستطيع الزواج وترك الملك.

- وأنا؟

- أنت تعلم ما في قلبي لك، لكني لا أستطيع، انتهى كل شيء.

- لكنك تظلميني، وقد وعدتِني واجتهدت حتى أصل إليك.

- أنت أيضًا استفدت وصرت قائد الحرس.

- كان كل هذا من أجلك.

- والآن الوضع تغير، ولا مجال للعاطفة.

لم يرد برجوان وبقيَ واقفًا، مشوشًا، يهم بالانصراف وقدمه لا تساعده على القيام فيبقى مكانه ودموعه حبيسة عينيه، أما ست الملك فلم يبد عليها أي تأثر.

وأخيرًا تكلمت ست الملك:

- عندي لك حل يرضيك ويرضيني.

فكأنما أُلقي بطوق نجاة لغريق فرفع رأسه منتظرًا الحل.

- سأجعل أخي منصور حاكمًا على مصر، وستكون أنت مساعده إلى أن يبلغ رشده، فأكون عوضتك عن صبرك، وحفظت ملكي وملك أخي، ما رأيك؟

- ليس هذا ما أردت، بل كل ما أردته هو محبتك والزواج منك.

- محبتي باقية، أما الزواج فلا أمل فيه، اقبل ما عرضته عليك أو انصرف.

- حسنًا، سأقبل أي شيء يرضيكِ، المهم أن تبقى المحبة قائمة.

- هي كذلك .. قم وسأعلن للناس غدًا حكم أخي المنصور ومساعده برجوان.

قام منصرفًا تائهًا لا يدري أيفرح بمنصبه الجديد أم يحزن على انتهاء ما كان يولد في حياته العقيمه معاني الجد، كانت كل حياته تدور حول ست الملك ورضاها، والآن وجب عليه حماية ملكها وترك الزواج منها، وخيلت له نفسه أن ذلك الصواب وأنه الحب بعينه.

أما ست الملك فظلت تنظر إليه وهو يغيب عن ناظرها بلا أي تأثر أو تغيير، كل ما فعلته أنها احتضنت أخاها، وقالت له لأجلك أنت يا منصور، ولأجل أبينا وجدنا.

في الصباح تم إعلان تولي المنصور بن العزيز للحكم، ويساعده برجوان الصقلبي، ولم يهتم الناس كثيرًا باسم الحاكم، المهم أن البلاد لها حاكم يقيم فيها العدل والنظام.

في أول يوم جمعة ظهر المنصور راكبًا فرسه، عن يمينه برجوان، ومن خلفهم ريدان صاحب المظلة، يمسك مظلته كالمعتاد يحمي بها الخليفة

من حرارة الشمس، كان المنظر غريبًا على الناس، فالمنصور قدمه لا تكاد تصل إلى بطن الحصان، وبرجوان بدلًا من أن يكون في الخلف، كان يرتدي ثوبًا أبيض مطرزًا بأوشحة الذهب، وعمامة تزينها الجواهر، أبقى ذوائبها تنسدل على ظهره، فأعطاه ذلك وسامة وهيبة تليق بحاكم.

استحوذ برجوان على أنظار العامة، خاصة مع صغر سن المنصور الواضح، أما ريدان فقد كان جليًّا ما يشعر به، لكنه بقي بمظلته يؤدي عمله على أفضل وجه.

بعد الصلاة قام برجوان في الناس خطيبًا، يعدهم بفرض النظام وعودة الجند إلى مراكزهم وأعمالهم، فاستبشر الناس خيرًا، فقال أحدهم:

- سيكون نعم الحاكم ورب الكعبة.

وقال آخر:

- بالطبع، فقد تعلم على يد يعقوب بن كلس.

وقال ثالث:

- كان قائدًا لحرس العزيز، فلعله تعلم منه السياسة والفطنة.

كان ريدان وسط الناس يسمع كلامهم ويقع الكلام على قلبه وقع الحجارة فيتألم، وهو غير قادر على الرد، ويكظم غيظه ويواسي نفسه بأن

الأمر مسألة وقت وسيكبر المنصور ويعود برجوان حارسًا كما كان، وربما عزله المنصور، ثم تراوده نفسه بأنه ربما تزوج ست الملك فصار حاكمًا شرعيًّا وانتقل إليه حكم مصر وما حولها، كانت الأفكار تتصارع في رأسه، وهو لا يقدر لها حلًّا ولا ردًّا.

بعد أيام عاد الجند إلى مواقعهم، وهدأت خلافاتهم بعد أن أجرى برجوان رواتبهم، وعين قائد جديد لكل فرقة منهم، وفرق بينهم في السكن والمعيشة، فصارت منطقة أهل كتامة غير منطقة أهل الديلم والصقالبة.

كان برجوان يطوف بنفسه، ومعه جنده في شوارع المحروسة، يتابع عمل الجند وتجارة العامة، ويتجه إلى ميناء المقس، يشاهد بنفسه سفن التجار وأسطول الجيش الجديد بدلًا عن ذلك الذي غرق قبيل وفاة العزيز.

في الليل تقابل برجوان مع ست الملك، وكان يبلغها ما تم طوال اليوم، وما ينوي فعله غدًا.

– ألم أقل يا برجوان، أنت نعم المساعد، والناس في الشارع يدعون لك.

- ما يهمني هو إ سعادك يا مولاتي، وأن أحقق لك ما تمنيته يومًا.

- أنت مخلصٌ أمين حقًّا يا برجوان.

- مخلص لك ولحبك.

- وللدولة.

- إخلاصي كله لك، ولا يهمني الحكم في شيء.

- لا تتغير يا برجوان، كن كما عرفتك، ولا تدع السلطة تعبث بعقلك.

- عقلي تم العبث به مسبقًا بك يا مولاتي.

ضحكت ست الملك لمغازلة برجوان لها وبدلال غير معتاد عليه برجوان ردت عليه:

- انصرف يا حبيبي فقد تأخر الوقت.

جن جنون برجوان وكاد يقفز من مكانه يلامس السماء.

- حبيبيك حقًّا يا مولاتي؟

لم ترد عليه وقامت منصرفة إلى مخدعها وبقي هو مكانه، تسكره كلمة من محبوبته.

استمرت اللقاءات بين برجوان وست الملك، وتعددت نجاحات برجوان، فينشئ جسورًا، ويمهد طرقًا، ويحاكم جنديًّا أخطأ، حتى كان

الناس يتندرون بأن أحدهم لو أخطأ في حق زوجته لجاء إليه برجوان داخل داره.

إلى أن حدث ذات يوم أن جاء إليه أحد التجار بهدية يهديه إياها.

- السلام على أمير المؤمنين برجوان الحكيم.

- وعليك السلام، تفضل، أخبرونا أنك تريد لقيانا.

- نعم يا مولاي جئتك بشيء لم تشاهد مثله من قبل.

- وما هو.

- جارية يا مولاي.

- وما العجب في جارية، فالجواري كلهن شيء واحد.

- لا يا سيدي هذه تختلف عنهن، فقد حازت من الحسن منتهاه، ومن الجمال أعلاه، لو شكلت الحلوى على هيئة بشر لكانت هي، ولو جمعت عطور الزهور لامرأة لاجتمعن فيها، وأما السحر، فعينها لو نظرت إلى رجل قتلته، تأتيها حزينًا فتعود وقد حزت سعادة الدنيا.

- أهذه درجة؟

- وأكثر يا مولاي.

- حسنًا، دعني أراها.

- هي لا ترى، بل تسمع أولًا يا سيدي؟

- كيف تسمع؟

- هكذا .. وصفق بيده مرتين.

فجاء صوت كروان على هيئة بشرية تغني، ومع أنها لا تعزف على آلات لكنها تمسك القلب وتعزف عليه بصوتها، فيقع الصوت على القلب لا على الأذن.

وهو ما حدث لبرجوان، وقف صامتًا يستمع إليها، وقد سحر بجمال صوتها، إلى أن انتهت فصاح قائلًا:

- قبلنا هديتك وأجزلناك العطاء، وأمر له بما لم يأمر به أحد لتاجر من قبل.

ودخلت الجارية، ولم تدخل لبهو القصر ولا إلى ساحته، بل دخلت في قلوب الرجال الحاضرين، وخيل إليهم أن الشمس قد نزلت إلى الأرض في صورة امرأة، فيكاد للجارية ضوء ينير حتى أنهم همو بوضع أيديهم على أعينهم اتقاء لشدة ضوئها، وعبر الكل عن إعجابه بطريقة واحدة، بالصمت.

والصمت أشد أنواع إظهار الجمال، فبعض الجمال لا تجد كلمات تصفه، وكل كلمة تقال في حقه هي إهدار لذلك الجمال.

كان برجوان أول الحاضرين إفاقة من سحر الفتاة فسألها:

- ما اسمك يا جارية؟

- شمس يا مولاي.

- حقًّا وصدقًّا ورب الكعبة كنت أعرف.

تبسمت الفتاة فأذابت بابتسامتها قلوب الحاضرين، وردت قائلة كما يأمر مولاي.

- أنت منذ اليوم ستبيتين هنا في القصر، لن تذهبي إلى القصر الغربي، ستبقين معي وسيكون غناؤك لي وفقط.

- تحت أمرك يا مولاي، ووضعت في جملتها دلال نساء العالمين.

فلم يرد برجوان بل قام من مجلسه وأخذها من يدها إلى داخل القصر وانصرف الحضور.

في هذه الليلة لم يذهب برجوان للقاء ست الملك وغلبه النعاس حتى صباح اليوم التالي، أما ست الملك فقد انتظرت مقدمه كما هو متفق عليه، إلا أنه لم يأت، فقامت من مجلسها وهي تظن أن انشغاله بأعمال الحكم هو السبب في غيابه، وفي الصباح لم يبرر برجوان غيابه، فلم يكن يقدر على مواجهتها وإخبارها بما حدث.

ظل برجوان يلوم نفسه على انشغاله بجاريته شمس عن لقاء ست الملك، وعاهد نفسه على الذهاب لمجلسها في اليوم التالي وقام ليتفقد أحوال البلاد والعباد، لكن هذه المرة ذهب إلى سوق الآلات الموسيقية واشترى منه هدية لجاريته الجديدة شمس، وبمجرد رجوعه إلى القصر أهداها لها، فغنت له الكثير بصوتها العذب الساحر، وزادت على غنائها هذه المرة أن تراقصت وتمايلت، فأظهرت له مفاتن أنوثتها وسحر دلالها فتراقص معها قلبه، وسحرت عينيه بمفاتنها، فغاب عن ست الملك لليوم الثاني.

استولت شمس على قلب برجوان وعقله، ومع مرور الوقت اعتاد على الغياب عن ست الملك، والاعتياد سم مجهول يقتل أي حب ويميت أي مشاعر.

الأمر الذي أحزن ست الملك لما عرفت بالأمر، كان اعتياد برجوان على مقارعة الخمور واستمرار جلسات السمر حتى الصباح وتبدل الحال، بدلًا من المرور وتفقد الأحوال، وانشغاله بشمس حتى عمت عينه عمن سواها وتركه لشئون الحكم، فصارت البلاد تحكم نفسها بنفسها، وصار وجوده وعدمه عند الناس سواء.

ساءت أخلاق برجوان وساءت معاملته للمنصور فأطلق عليه اسم (سحلية) لخفة حركته، وصار يناديه به أمام الناس.

أما أهل مصر فصاروا يترحمون على أيام العزيز ووزيره يعقوب بن كلس، ويدعون الله أن يفرج الهم ويزيل الغم.

كان يجب عليَّ أن أتحدث إلى الشيخ منصور، فبرجوان يتغير من سيئ إلى أسوأ، وبصفتي حامل روحه في زمن مختلف وجب عليَّ إنقاذه من الفساد الذي استولى عليه، فسألت الشيخ:

- ألا يوجد طريقة لتغيير ما يحدث؟

- وكيف يمكن أن تغيره؟

- لا أدري ولكنه يسير إلى مصير مجهول.

- هو بالفعل كذلك، لكن ماذا ستفعل؟

- سأحذره وأعلمه أن ما يفعله خطأ.

- وتعتقد أن هذا سيغيره؟

- بالطبع فأنا أعرفه جيدًا، أعني أعرف نفسي، فأنا أستمع إلى نصح الناصحين.

- هذا ما صرت عليه، لكنك لم تكن تستمع إلى أحد قبل ذلك، وفوق كل هذا نسيت أمرًا مهمًّا.

- وما هو؟

- أنت الآن في زمن تم فيه كل شيء، ونحن لا نستطيع تغيير ما كان، ولكن نستطيع أن نغير ما سيكون.

ودائمًا وأبدًا اعلم أن كل إنسان يعلم جيدًا اختياراته، لا أحد يختار شيئًا دون أن يعلم نتائج اختياره.

- لكن برجوان بهذا الشكل سيضر نفسه، وسيضر البلاد.

- رفعت الأقلام وجفت الصحف، وما كان مقدرًا سيكون.

ظللت أراقب برجوان وأنا أتحسر على الانحدار الذي وصل إليه، وددت أن لو كنت أقدر على منعه وأن أهزه هزًّا وأصرخ في وجهه بأعلى صوت يسمعه قائلًا: (أنت تسير في الاتجاه الخاطئ) لكن لا فائدة.

فهو يعلم جيدًا اختياره لكن عميت بصيرته واستولى عليه الغرور.

كانت أكبر مصائب تغير برجوان هو استهزاؤه الدائم بالمنصور، الذي لم يعد صبيًّا صغيرًا بعد الآن، فعمره الآن خمسة عشر عامًا.

ورغم كل مصائبه كان هناك من يحاول دائمًا أن يمد يده لينقذه، ويحاول دائما أن ينصحه، فكانت ست الملك تحاول لقاءه، ويدعي الانشغال ويرفض اللقاء، حتى حدث ذات مرة أن قابلته فعاتبته

- أتتهرب من لقائي يا برجوان بعدما كنت تتمناه؟

زاغت عيناه، وتمتم بكلام غير مفهوم، وظهر العرق جليًّا على وجهه وأخيرًا تماسك ورد عليها.

- لا أتهرب، لكنها الأشغال، والبلاد تحتاج إلى عمل كثير.

- إذن لماذا لم تعد تأتي إلى مجلسي وتقص عليَّ أخبار البلاد والعباد؟!

- أنت لك عيونك في كل مكان، وبالتأكيد لا تحتاجين إلى كلامي.

- أحتاجه يا برجوان، وأحتاج أن أسمع منك بالتحديد أكثر من الآخرين.

- حسنًا، سأحاول القدوم اليوم، سأنصرف الآن لأنني مشغول.

ولم ينتظر منها ردًّا وقام دونما أي سلام.

بقيت ست الملك جالسة تنظر إليه أثناء انصرافه، ولأول مرة أرى الدمع محبوسًا في عينها، فلا هي تقوى على البكاء، ولا هي تقوى على تجاهل التغير الذي حدث.

زاد استهزاء برجوان بالمنصور، فكان يمشي أمامه في المواكب ويتجاهل التعامل معه على أنه الخليفة، يناديه باسم (سحلية) أمام الجموع، وعند الجلوس يضع قدمه في مواجهة المنصور، يسفه رأيه عند

الحديث، ويقاطع كلامه كأنه لا شيء، والمنصور بعينه الزرقاء ينظر إليه دون أن يبدي أي رد فعل.

لكن حدثًا جديدًا دار في القصر، كمن ألقى حجرًا في الماء الراكد.

فذات يوم أمرت ست الملك بإحضار ريدان لأمر عاجل دون أن يعلم برجوان، وبالفعل حضر ريدان ودار الحديث:

- اجلس يا ريدان، أريد الحديث معك.

- خادمك المخلص يا مولاتي.

- أنت صديق برجوان.

- كنت يا مولاتي، لكنه الآن لا صديق له إلا جاريته شمس.

كان للكلمة تأثيرًا على ست الملك، فاحمر وجهها، وصمتت للحظات ثم تكلمت:

- لكنه يحتفظ لك بمكانة الصديق القديم.

- لا أدري يا مولاتي، لكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

- النصح يا ريدان، تستطيع النصح، وإن فعلت واستمع إليك فلك من العطاء الجزيل.

- يكفيني رضاؤك عني يا مولاتي.

- حسنًا، انصرف الآن ولا تنسَ أن تأتي بالبشرى غدًا.

- سأفعل يا مولاتي.

وقام ريدان خارجًا من مجلسها عائدًا للخلف حتى لا يدير ظهره لها، ومع كل خطوة يقبل الأرض بين يديها كدليلٍ على الطاعة التامة والإخلاص الكامل.

أثناء مرور ريدان في ردهات القصر قابله المنصور، فأظهر ريدان قمة التقدير والاحترام، إذ انحنى يقبل الأرض بين يدي الخليفة مخاطبًا إياه بمولاي المعظم ملك مصر، مما أظهر الرضا على وجه الخليفة.

في غرفته أخذ ريدان يحدث نفسه من شدة الغضب:

- الآن فقط يتذكرون ريدان، يحسبون أننا أصدقاء، ولم يتذكرني أحد طوال هذه الفترة، اختاروه ليكون الوصي على الخليفة، واختاروه ليكون قائد الحرس، دائمًا ما يكون الاختيار الأول برجوان، والآن ماذا فعل؟ كيف استغل وضعه الجديد؟!، حتى حينما يطلبون النصح لا أحد منهم يكافئني على ما قدمت من قبل، سأنصحه وأقبل هديتهم وبعدها أترك هذا القصر الملعون.

صباح اليوم التالي ذهب ريدان إلى برجوان وطلب لقاءه، فأذن له وعكس ما توقع ريدان قابله برجوان بكل استبشار لقدومه:

- أهلًا ومرحبًا بصديقي القديم.

- افتقدتك يا مولاي، وافتقدت الحديث معك.

- والله ما زلت أتذكر أيام الحانوت بكل خير، كنت وما زلت نعم الصديق.

- بل أنت والله يا مولاي نعم الصديق.

- ألك حاجة يا ريدان؟ كل ما تطلبه مجاب.

- لا والله، ففضلك علي كبير، لكني جئتك ناصحًا، أتقبل النصح مني؟

- وممن أقبل النصح إن لم يكن من صديقي العزيز؟!

- كثرت أشغالك يامولاي، ونسيت أحبابك ورعاياك.

- أكمل يا ريدان.

- أعلم أن شمس أخذت عقلك، لكنها في النهاية ليست أهم من البلاد، خاصة وأنت حاكم مصر، ولك كل المحبة في قلوب الناس.

- لكني الوصي فقط ولست الحاكم يا ريدان.

- لكن أهل القاهرة يتعاملون معك على أنك الخليفة، والأهم هو اعتبارات الناس لا ما يقوله الخاصة في القصور.

- صدقت، سأعود لسابق عهدي إن شاء الله، لكن أخبرني عن أحوالك.

- بخير حال ما دام مولاي استمع إليَّ.

- حسنًا، ولك مني حديقة وجارية.

- أدام الله عطاءك يا مولاي.

- وأدام الله صداقتنا يا ريدان.

قام ريدان منصرفًا ومودعًا على وعد بتكرار اللقاء والنصح، وتأكيد برجوان على أن بابه مفتوح لريدان في أي وقت.

خرج ريدان من عند صديقه برجوان بوجه غير الذي أتى به إليه، فقد دخل وهو أبغض الناس إلى قلبه، وخرج وهو أحب الناس إلى قلبه، فلم يجد منه صدًّا ولا تنكرًا لأيامهم الخوالي، بل وجد تقديرًا واحترامًا لم يتعامل معه أحد به من قبل.

وحدث هذه المرة أيضًا أن قابل المنصور، فوجئ به أمامه، لم يدر من أين جاء، فحياه بكل تقدير وإجلال.

لكن المنصور هذه المرة لم يقف، بل نظر إليه نظرة خلعت قلب ريدان، واستمر في طريقه وفي لحظة لم يعد موجودًا، قال ريدان محدثًا نفسه (صدق من سمَّاك سحلية).

في اليوم التالي وجد ريدان أحد الجند واقفًا على باب داره، يدعوه للقاء الخليفة، فارتدى ملابسه على عجل وذهب مع الجندي للقاء صديقه برجوان، وهو يتساءل، لماذا يرسل أحد الجنود إليه؟ وماذا يريد منه برجوان فقد كنا نجلس مع بعضنا سويًّا بالأمس؟.

في القصر وفي قاعة الحكم كان ريدان يقف أمام الخليفة فعلًا، لكن لم يكن صديقه برجوان كما اعتقد، بل كان الخليفة الفعلي، المنصور. وفي قرارة نفسه كان يدعو ألا يكون المنصور قد سمعه وهو ينعته بالسحلية أو أن يكون المنصور قد بلغه اعتقاد ريدان بأن الخليفة بالنسبة له هو برجوان.

ظل المنصور يطالع بعينيه ريدان دون أن يتحدث، وبدأ الرعب يجتاح ريدان من تلك النظرات، فبدا له أن المنصور ينظر إلى عمق روحه، وأن كل نظرة منه تكشف خبايا نفسه، حتى خيل إليه أن المنصور بنظرته تلك علم ما دار بينه وبين برجوان من حديث، بل ربما علم أنه سرق بيض دجاجة الجيران وهو صغير، فقرر أن لا يتخذ الكذب سبيلًا أمامه، فهذا الصبي رغم حداثة سنه إلا أنه يبدو مرعبًا، وأخيرًا قرر المنصور الكلام.

- قابلتك مرتين بالقصر يا ريدان.

- نعم يا مولاي.

- ولمَ تدُور في القصر وأنت حامل المظلة، أهذا مكانك في القصر؟

- كلا، لكن كان يرسل في طلبي فأجيب النداء.

- ومن أرسل في طلبك؟

- في المرة الأولى مولاتي ست الملك، وفي الثانية مولاي برجوان.

- فقال المنصور متهكمًا مولاك برجوان؟!

- هكذا ينادى بين الناس يا سيدنا.

- وماذا يقال أيضًا بين الناس؟

- يقال إنه الخليفة.

- وأنت ماذا تعتقد يا ريدان؟ أهو الخليفة؟

- الحق إن الخلافة ما كانت لتكون إلا لك يا مولاي، فأنت سليل أهل بيت النبي، وحفيد المعز وابن العزيز.

- وماذا أرادت منك أختي ست الملك؟

- أرادت أن أنصح برجوان لأنني كنت صديقه قديمًا.

- ونصحته بماذا؟

- نصحته أن يعطي الحق لأهله، وأن يعلم أن مولاي المنصور هو الخليفة، وأنه مجرد جندي من الديلم لا قيمة له.

قهقه المنصور: حقًّا؟ ولهذا وهب لك الحديقة والجارية؟ أنت تكذب يا ريدان.

– ما كان لي أن أكذب في حضرة مولاي المنصور، لكني أقول ما أعتقده، أما كلامي مع برجوان فكان تنفيذًا لأوامر سيدتي ست الملك، وأنا خادم أمين لآل بيت الرسول، وسيدنا علي، ومن بعدهم آل المعز لدين الله.

– حسنًا، يا ريدان من اليوم، ستأتيني بأخبار الناس في الشوارع والطرقات.

– السمع والطاعة للخليفة.

– وأيضا أريد منك أمرًا آخر، اقترب هنا.

فاقترب ريدان من المنصور الذي همس له ببعض كلمات جعلت عينه تتسع على آخرها من الدهشة، أو ربما من الرعب، لا أحد يدري.

في اليوم التالي طلب ريدان مقابلة الخليفة برجوان، هكذا تحدث إلى الحاجب الذي طلب منه الانتظار قليلًا ريثما يستأذن الخليفة، وسرعان ما أذن له فدخل محييًا الخليفة:

– حيا الله ملك مصر.

– حياك الله صديقي العزيز، هلم إليَّ.

فاقترب منه وجلس إلى جواره يحدثه عن أحوال البلاد والناس واستمرا يتحدثان، ولم يذكر ريدان أي شيء عن لقائه بالمنصور، وأخيرًا اقترح ريدان اقتراحًا.

– ما رأيك يا مولاي أن نعيد الأيام الخوالي؟

– وكيف ذلك يا صديقي؟

– نذهب سويًّا إلى الحانة المعتادة، أتذكرها؟

– بالطبع أذكرها.

– هل نقدر على ذلك؟ أم يمنعك منصبك من اصطحاب صديقك؟

– لا شيء يمنعني عن صديقي العزيز، الليلة نذهب سويًّا بإذن الله.

تهلل وجه ريدان من الفرح

– أحقًّا سنذهب! لقد أسعدتني والله يا مولاي.

– لقد قلت لك يا ريدان كل ماتطلبه مجاب.

– حسنًا، اسمح لي أن أذهب إلى الحمام لأغتسل وأتطيب بما يتناسب مع صديق الخليفة.

– أنت أخ عزيز يا ريدان، نتقابل في الليل بإذن الله.

- أستودعك الله.

وقام ريدان مودعًا ومنصرفًا، وبالفعل ذهب إلى حمام معروف، فتطيب وتطهر، ووضع من العطور ما يليق بالخروج مع الخليفة.

وفي المساء انتظر ريدان أمام باب القصر، ولحظات وخرج برجوان بدون حراسة متخفيًا ومتلثمًا حتى لا يراه أحد، وبالفعل ذهب الصديقان إلى الحانة وجلسا يتسامران ويتضاحكان حتى اقترب الفجر من البزوغ، وأخيرًا قرر برجوان الانصراف، وفي الطريق إلى القصر قال برجوان:

- لقد أسعدني لقاؤك يا ريدان، وكنت مفتقدًا للحانة والجلوس وسط الناس.

- لكنك تغيرت يا برجوان، ونسيت أنك كنت واحدًا من هؤلاء.

- أنا ابن رجل مسكين يا ريدان، فإذا وجدت أمامي قصورًا وموائد فلا بد أن أتغير ولو قليلًا، وأنت نصحتني، وإن شاء الله تجد ما نصحتني به واقعًا ومطبقًا.

- لكن الوقت فات يا برجوان.

- لا لم يفت، من الغد إن شاء الله سأعود للمرور بين الحوانيت وأتابع الموازين بنفسي.

- للأسف لن يأتي الغد يا برجوان.

وبحركة سريعة غرس خنجرًا في صدر برجوان، غرسه بأكمله إلى المقبض، ثم نزعه وغرسه، ونزعه وغرسه، وبرجوان يترنح يمينًا ويسارًا لا يتكلم بل يبكي.

ليتها لم تكن منك يا ريدان، ليتها كانت من غيرك.

لم يرد ريدان، بل سحب خنجره أخيرًا، وعقر برجوان، طعنه في رقبته وسقط برجوان في دمائه، أما ريدان فقد أخذ خنجره وترك جثة صديقه ملقاة في شارع ضيق، ملقاة على الأرض، مضجرة بالدماء.

استيقظ أهل مصر على الخبر، ففي صلاة الفجر وجد أحدهم جثة ملقاة على الأرض، ولما صرخ مناديًا للجند وقفوا يبكون فقد كان هو قائدهم الأسبق، والخليفة المعروف لهم، كانت هذه هي جثة (برجوان الصقلبي).

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، وتأثيره كان مختلفًا.

فرح أهل كتامة، فقد كان هذا يعني انحسار نفوذ جند الديلم.

حزن أهل مصر وفرح بعضهم، كان عادلًا لكن الفساد عرف طريقه إليه، الوحيد الذي اعتصر الحزن قلبه كانت ست الملك، كاد البكاء يذهب عينها ولم تقوَ على إظهار حزنها أمام أخيها، ظلت تحدث نفسها:

– حذرتك يا برجوان، كنت أخاف عليك من هذا المصير، كل من سلك طريق الفساد سقط به، رحمك الله يا حبيبي ونور عيني، كنت أحب الناس إلى قلبي.

أعلن الجند أنهم قبضوا على الفاعل، وأمام جموع المصريين وقف ريدان يصرخ:

– لقد أمرني الخليفة بذلك، أنا خادم الخليفة، أنفذ ما يأمر به، أقسم لكم كانت أوامر الخليفة.

وقف الناس غير مصدقين، فالخليفة فتى في الخامسة عشر، هل يعقل أن يبدأ حكمه بدم حرام؟ إذا بدأ حكمه بالدم فكيف سيكون بعد ذلك؟ وأين أخلاقه؟ يقلب صديقًا ضد صديقه؟ هل هذا حفيد المعز؟ أين الدين؟

بدأت الهمهمة تتناقل بين جموع الناس وتتحول الهمهمة إلى تساؤلات، والتساؤلات إلى صيحات، والصيحات إلى ثورة ضد الخليفة.

أما المنصور فوقف حائرًا لا يعرف كيف يتصرف، الناس يزدادون غضبًا وهو لا يريد أن يفقد تقبلهم له، فلجأ إلى قائد الحرس الجديد، الحسن بن جوهر الصقلي.

ابن جوهر الصقلي فاتح مصر، اسم أبيه سيكون له قبول عند الناس، وكونه قائد الجيش سيجعل كلامه مصدقًا أمام الجموع، وقد كان، وقف الحسن بن جوهر أمام القصر يعتذر للناس، ويخبرهم أن الخليفة سيصدر خطابًا في صلاة الجمعة، يعلمهم فيه ما كان وما سيكون.

في صلاة الجمعة وقف الخطيب ممسكًا بخطاب من الخليفة، جاء فيه:

(أعتذر إليكم عما بدر مني، فاغفروا لي حداثة سني، وعدم معرفتي ببواطن الأمور، وقد كان برجوان ناصحًا أمينًا، عالمًا حكيمًا، فاستمعت له وتعلمت منه، لكن لما طغى وتجبر وأساء لخليفتكم كان لا بد أن يكون الجزاء من جنس العمل، وأما صديقه الخائن، فقد حق فيه قول الله عز وجل (وما كان لي عليكم من سلطان، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) وسينال كل خائن جزاءه، وقد سميت نفسي أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، فاسألوا الله لي التوفيق والسداد، والعون والرشاد، والسلام على من اتبع الهدى).

وأمام المسجد الأزهر وقف ريدان أمام جموع الناس يبكي ولا يتكلم، ويصرخ ولا يبين، ولا يعلم أحد بماذا يهذي أو يقول، فعلى ما يبدو أن لسانه قد قطع، وأمسك به الحسن بن جوهر الصقلي، وأجلسه على ركبتيه، وبضربة واحدة طارت رأس ريدان ونادى مناد جزاءً وفاقًا.

كانت هذه الأحداث أكبر من أن أتحملها، فظللت أصرخ وأبكي فاحتضنني الشيخ وقال يكفي ما رأيت هيا لنعود، وفي غرفته كنت ما زلت أبكي ويهتز جسدي وأنا أضع وجهي بين كفي لا أقدر على النظر للشيخ، فقد كان مقتل برجوان صدمة بالنسبة لي، أما هو فقد كان يدعو رحم الله برجوان الصقلبي.

جلست مع الشيخ منصور بغرفته أبكي بحرقة على ما حدث لبرجوان، فلم أتوقع أن تنتهي حياته هكذا، ولم أتخيل أن أعيش في حياتي السابقة بهذا الصخب، بين نجاح وفساد وصعود وأخيرًا غدر من صديق.

قاطع الشخ منصور تدفق أفكاري وسألني:

- هل تعتقد أن قراءة قصص الناس من وجوههم أفضل أم صناعتها؟

- لا أفهم كيف أصنع قصصًا من وجوه الناس؟

- يعني أن تتحكم فيما يسعدهم وفيما يحزنهم.

- هذا أمر مستحيل.

- لو أننا عرفنا سر الروح لصنعنا قصصًا تسعدها وأخرى تحزنها.

- لكن سر الروح عند الخالق!.

- هذا ما أبحث عنه منذ القدم.

- عن سر الروح؟

- نعم. قد يكون سعادة الروح في الدين، وقد يكون في الأمان، أشياء كثيرة تحتاج لمن يبحث عنها.

- والوجوه؟

- أنت لم تفهم بعد، الوجوه مرآة الأرواح، كل إنسان يشعر بشيء ينعكس ما يشعر به على وجهه، إن سعدت روحه ظهر البشر على وجهه، وإن حزن سالت الدموع على وجهه انعكاسًا لحزنه.

- لم أفكر في هذا مسبقًا.

- لكني فكرت وكتبت كتاب الوجوه لذلك، وأنت اخترت أن تتبعني لأنك مثلي، تحب الوجوه وما فيها.

- نعم لكني لم أنتبه للروح.

- هذا نقصان علم منك وأنا أكمله لك، فقط عندي سؤال.

- كلي آذان صاغية.

- هل تتبعني على أن أعلمك سر الروح؟

- وما المقابل؟ لماذا أنا؟

- لأنك الوحيد الذي اهتم وسافر ليبحث عن الكتاب وما فيه.

- وفاطمة؟

- فاطمة قصة من القصص، هل هناك قصة تستمر بدون نهاية؟

- وكيف انتهت قصة فاطمة؟

- فاطمة ماتت يا عزيز.

لم أتحمل وقع الخبر، فما رأيته في تلك الليلة كان أكثر مما أتخيل، قُمتُ صارخًا ماتت؟ متى؟ وكيف؟

- اهدأ، الموت أكبر من خروج الروح من الجسد يا عزيز.

- لم أعد أفهم أي شيء.

- حسنًا، هل تريد لقاء فاطمة؟

- نعم والآن.

- حسنًا، دعنا نذهب لفاطمة.

لم أتخيل أن الأمر بهذه البساطة، إذا كان يقدر منذ البداية على أن يجمعني بفاطمة، فلم أخرني كل هذا الوقت؟!

سرنا سويًّا متجهين إلى المقهى.

ما إن رآنا علي حتى شحب وجهه، لا أدري خوفًا مني، أم من الشيخ منصور، رغم أنه بالأمس القريب كان يرحب بالشيخ منصور ويتمنى ضيافته.

دخل الشيخ منصور بصوته الأجش العميق.

– السلام عليك يا علي.

– قبل علي يد الشيخ منصور وهو يرد عليه السلام بمنتهى الخضوع والتذلل.

– نريد لقاء فاطمة.

– لك ما تريد اتبعني.

سرنا خلف علي ندخل يمينًا ويسارًا في شوارع جانبية صغيرة لم تحسب يومًا أنها موجودة وسط ميدان الحسين، حارات صغيرة وبيوت بسيطة وأعداد لا متناهية من البشر، حتى وصلنا إلى بيت عتيق، أحجاره بادية القدم، وشرفاته من أخشاب متداخلة، بابه صغير، في كل تفصيلة منه تجد أثرًا للزمن.

دخلنا ونحن نحني رؤوسنا حتى لا نصطدم بعتبة الباب، كان مكانًا لبيع الملابس على ما يبدو، فهناك أكياس كبيرة بداخلها مجموعات من

الملابس، وفي أحد الجوانب مكتب عتيق تجلس عليه امرأة لا تتبين ملامحها لضعف ضوء المصباح الأصفر المتدلي من سقف البيت القديم.

ألقى الشيخ منصور التحية على المرأة الجالسة:

- كيف حالك يا فاطمة؟

- نحمد الله يا شيخ منصور.

- عزيز كان يرغب في الحديث معك.

- لماذا؟ يكفيه الكلام معك.

- لم يقتنع بكلامي.

- إذا لم يقتنع بكلام الشيخ منصور بعلمه وذكائه سيقتنع بكلام فاطمة المسكينة؟

لم أتحمل تلك الردود فصرخت فيها:

- لماذا هذا الجفاء؟، أين حبك يا فاطمة؟

ضحكت بسخرية:

- أي حب يا مسكين؟ هل صدقت؟

- وكلامك؟

- لا أذكر أني تحدثت معك.

- ولقاؤنا في الفندق؟

- مجرد كلام عابر والبركة في الشيخ منصور.

تدخل الشيخ منصور في الحديث:

- قلت لك إن الناس قصص في حياة بعضهم، كلما انتهت قصة بدأت أخرى.

- لكنها لم تكن مجرد قصة بالنسبة لي.

- أنت من توقع الكثير، ومن يتوقع كثيرًا من الناس يقع على رأسه.

- توقعت بمواقف لا بمجرد الكلام.

- توقعت بظنك وبعض الظن إثم.

قامت فاطمة لتكمل عملها دون أي كلام فقمت خارجًا والغضب يتملكني ومن خلفي الشيخ منصور.

سرنا مسافة غير قليلة دون أن يكلم أحدنا الآخر إلى أن أراد الشيخ منصور أن يهون عليَّ.

- النساء كثيرات، لا تشغل بالك بواحدة تغيرت عليك.

- لكنني كنت متأكدًا من حبها فلم التغير؟ ولم هذا الجفاء؟!

- لا تدري ما بروحها، ألم أقل لك إن الوجه انعكاس الروح؟ ربما كانت روحها منذ البداية روح فاسدة، وأنت لم يلفت نظرك إلا الوجه؟

- أنت محق، السر في الروح.

- إذن هل أنت معي؟

- نعم، أنا معك.

- حسنًا فعلت.

- دعنا نذهب إلى غرفتي لتتعلم أول درس.

سرنا مسرعين وقد تغيرت همتي وازداد حرصي، فكنت أسابق الشيخ منصور وهو يلاحقني ويبتسم.

لما دخلنا إلى الغرفة وجلسنا سألني:

- ما رأيك في ما فعله ريدان؟

- بدا عليه أنه كان رافضًا ما حدث لبرجوان.

- لكنه هو من اختار القتل.

- خوفًا من المنصور.

- أو لأن كلام المنصور وافق ما في نفسه.

- بغض النظر عن السبب ففي النهاية هو غدر بصديقه.

- إذن نحن نهتم بنواتج الأفعال لا بأسبابها؟

- لم أعد أفهم ما تريد.

دعنا نذهب إلى هناك ونشاهد ما حدث.

كان الوضع في القاهرة هذه المرة مختلفًا عن كل مرة كنت أشاهد فيها ما يحدث.

الناس تعلوا وجوههم الكآبة، الحزن يسيطر على الوجوه، الحوانيت مغلقة، حتى الجند تغيرت هيأتهم فبدلًا من جنود الديلم وكتامة ظهر جنود من السودانيين، والناس تدعو المنصور باسم جديد، فالمنصور صار اسمه (الحاكم بأمر الله).

تحدث الشيخ عن الوضع الجديد، وقال الناس تحب أن يكون الحاكم مدللًا لهم، لكن الحاكم الناجح هو من يتعامل معهم على أنه أبوهم، فهو يعلم ما يصلحهم ويعلم ما لا يعلمون.

- لكن الحاكم بشر يخطئ ويصيب.

- هذا ما يعتقده الناس وليس كل ما يعتقده العامة صحيح.

في هذه الأثناء نادى مناد أن الحاكم بأمر الله قد صفح عن الحسن بن جوهر وأعطاه الأمان.

وبالفعل عاد الحسن بن جوهر وبمجرد دخوله للقصر أمسك به جند الحاكم، وأمام الجامع الأزهر قطعت رقبته.

– هذا غدر واضح، قلت هذا للشيخ منصور.

– لا تحكم على الأمر بالظاهر هذه خدعة، وهو قد خان المنصور فاستحق الخداع لخيانته.

– لكن هذه المرة الثانية التي يخدع فيها المنصور أحدًا ثم تبرر لخداعه.

– الغدر يكون دائمًا لمن يستحق ولا يوافق عليه إلا من كانت روحه روح ضبع.

– ماذا تعني؟

– لو شبهت كل روح بحيوان مفترس؛ لكانت بعض الأرواح تشبه الضباع في خستها ودناءتها، وهذه هي روح ريدان والحسن. وكما أخبرتك، الأجمل من أن ترى الوجوه أن تصنع قصصًا تنعكس على وجوه الناس.

انظر إلى وجوه أهل القاهرة سترى انعكاس ما حدث عليها.

– لكن الأساس أن يشعر الناس بالسعادة.

– هذا من ضمن اعتقاداتك الخاطئة، الأصل في الناس الشقاء، والاستثناء السعادة.

– أول مرة أسمع هذا الرأي.

ضحك الشيخ منصور قائلًا، لن ترى من يقول هذا الرأي غير الشيخ منصور.

– لكن لو أن الناس عاشوا في تعاسة طوال الوقت سيكون هذا ظلم بيِّن، لم نخلق لنكون تعساء.

– إذن وجب عليهم أن يبحثوا عن ما يسعد أرواحهم.

– وما هو؟

– الدين.

وهذا هو الوجه الآخر للحاكم، هيا لتشاهد كيف يبحث الحاكم بأمر الله عن السعادة التي يريدها قومه.

في القصر كان الخليفة يجلس في غرفة غاية في البساطة، مفروشة بالحصير، ومصباح زيتي بسيط بلا أدنى نقوش، بخلاف كل غرف القصر، وعلى الحصير يجلس الحاكم بأمر الله بشعر أشعث، وملابس غاية في البساطة مصنوعة من الصوف متجهًا إلى القبلة يرفع يديه إلى السماء مبتهلًا:

(رب قد آتيتني الملك، وأنت مالك الملك، فأعني على ما وليتني، وارزقني العلم والفهم، إنك على ما تشاء قدير. اللهم إن الناس قد

استحبوا العمى على الهدى، فاجعلني لهم هاديًا، واجعلني صراطك المستقيم)

وقام من مجلسه يمشي بهدوء وتأنٍ يتمتم بأدعيته، ومن وقت لآخر يرفع صوته مرددًا يا لطيف. وبدلًا من مواكب الخلفاء التي كانوا يتحركون بها خرج متفقدًا أحوال الناس وهو يركب حمارًا بدون سرج، قدماه تتدليان عن جانبه، يمر على هذا الحانوت وذاك البائع، ويرفع صوته قائلًا (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) إياكم والسرقة فإن عقابها القتل، وإني لكم ناصح أمين.

وكان يمشي وبجواره عبد أسود، فمن وجوده غاشًّا في بيعه أمر عبده أن يفعل بالبائع الفاحشة العظمى أمام الناس، وكلما مر على مكان بدا الرعب على وجوه أصحابه، وهو لا يأبه لهم، كأنهم لا وجود لهم من حوله.

ثم أمر مناديًا ينادي في الناس أن الصلاة بعد ذلك ستكون بمسجده الجديد، مسجد الحاكم بأمر الله، وترك الصلاة في المسجد الأزهر، وأن من اليوم هو أمير المؤمنين، والحكم بين الناس بالعدل، والعاقبة لمن افترى وتجبر.

فلم يظهر أي فرح على الناس.

بدا الفرح والسرور على وجه الشيخ منصور وقال ووجهه يتهلل:

- هل رأيت التقى والدين؟

- لكنه يبالغ فيما يفعله، والناس لا تحب ما يقول.

فتحدث الشيخ منصور بعصبية واضحة:

- الناس الناس، هل كل أحكامك بما يحب الناس وبما يكرهون؟!

وبينما نحن نتحدث نادى مناد أن الحاكم منع خروج النساء إلى الشوارع ويمنع بيع ملابسهم وأحذيتهم.

وأن كل من عنده عسل فليضعه أمام بيته، ومنع بيع العسل، ثم أرسل جنودًا فجمعوا العسل من البيوت والحوانيت حتى صارت قافلة كبيرة من الجمال تتحرك وهي حاملة للعسل، ثم ذهب بكل العسل فألقى به في النيل.

فسألت الشيخ منصور:

- لم يفعل كل هذا؟

- هذا من تمام الإيمان والتقى.

- أي إيمان وتقى؟! إنه يمنع الحلال من أجل الحرام، ومن يرد فعل الحرام سيفعله حتى ولو وضعت حوله ألف سور.

– لكنه بهذا هذب أرواحهم ودلهم على الطريق المستقيم، والويل لمن يعصي ويفعل الحرام.

– وغدره بريدان والحسن بن جوهر حرام أم حلال؟

– هذه أمور ثانوية، المهم أن يحافظ الناس على التزامهم.

واستكمل الحاكم مروره بين الأسواق، فوجد امرأة في الفسطاط تقف وسط الشارع، فأسرع إليها ليمسكها، فوجدها مصنوعة من الورق، فجن جنونه، ونادى في جنوده من السودان أن يحضروا إلى الفسطاط، وتركهم يعيثون فيها فسادًا وحرقًا، والناس يهربون ويصرخون ويستغيثون به، وهو يقف في شرفة قصره يشاهدهم إلى أن احتمى الناس بمسجده، ودخل جنوده إلى المسجد فلم يرحموا أحدًا.

– هنا صرخت في وجه الشيخ منصور لا مبرر لهذه المذبحة.

– بالعكس هناك مبرر، فلو تركهم لاجترأوا على دين الله.

– كل فعل يفعله تبرر له؟!

– لأن كل فعل يقوم به له حكمة، وهو يريد بالناس الخير.

– كم من مريد للخير لا يبلغه.

لم يعلق الشيخ منصور، فطلبت منه أن ندخل إلى القصر، ونرى الحاكم مع أهل بيته، فوافق على مضض.

دخلنا، فكان الحاكم يجلس في مصلاه، غرفة بسيطة تضيئها الشموع، وهو يصلي ويبكي، إلى أن جاءه أحد الخدم يطرق عليه الباب.

- ادخل يا بني.

- جئت بالغلام يا سيدي.

- وما اسمه؟

- اسمه مرجان يا مولاي.

- أحسنت الاختيار، هل هو في عمر الظاهر؟

- نعم في عمر ابنكم المبارك.

- ما شاء الله، ما شاء الله.

- اقترب يا بني.

اقترب الولد خائفًا يرتعد، والحاكم يربت عليه، اطمئن يا ولدي، كلنا لله وهي لله، ومد يده وسحب خنجرًا وقتل الطفل المسكين.

أخذ الحاكم يبكي وهو ينظر إلى جسد الطفل، سبحان الله، تلك الروح اللطيفة تذهب في لحظة، تلك الحياة النابضة اختفت في لمح البصر، أين الروح؟ حسبتها ظاهرة في الأطفال سبحانك يا رب.

لم أر في حياتي مشهدًا بهذا السوء، ولم أكن سأقبل أي مبرر من الشيخ منصور إلا أن ما رأيته بعد ذلك كان أكثر صدمة مما فعله مع الولد، إذ أمر باستدعاء خادمه غين، وجاء الخادم يقبل الأرض بين يديه.

- مولاي المعظم ملك مصر وما حولها.

- لم أجد الروح في الفتى يا غين.

- لقد أخذتها منه يا مولاي وقد تغلبت بقوتك على ضعفه البشري.

- لكني أريد أن أراها يا غين وأنت لم تأتني بما طلبت، اقترب.

اقترب غين وهو يبكي، ارحمني يامولاي، أنا عبدك المسكين المطيع المخلص.

- لا تخف لن أقتلك سأعلمك أن تفعل ما تؤمر به، امدد يدك إليَّ.

يمد غين يده وهو يبكي فيقطعها الحاكم ويمسكها ويعطيها لغين.

- اذهب إلى الطبيب وقل له أن يعالجك.

يأخذ غين يده بيده الأخرى ويمشي، ويجلس الحاكم على مصلاه يدعو ويبتهل.

(اللهم أنت مالك كل شيء، بيدك الأمر، تحيي وتميت وأنت على كل شيء قدير، أسألك علم الدنيا والآخرة، علمًا من لدنك، فوق كل ذي علم من البشر).

وهو يقوم ليصلي ثم يجلس فيكرر الدعاء، وبينما هو كذلك سمع طرقًا على الباب فقطع صلاته وقال:

- ادخلي يا حبيبتي.

- أين أنت؟ لا أراك!

- لكني أراك تقدمي إلى المصلى.

- ها أنت ذا.

فاحتضنها ووضع يده على كتفها.

- وددت لو جعلتك مكان قلبي.

- بل وددت لو جعلتك أنا مكان عيني يا نور عيني.

- واها يا حبيبتي كيف السبيل إلى الخلاص منك؟

- أتود الخلاص مني وأنا أحبك أكثر من الدنيا وما عليها.

- وأنا أحبك وأعشقك.

- كيف تحبني وتريد الخلاص مني؟

- كما تخلصت من أطياب العيش والرفاهية.

- جمالي ملك لك.

- لكنه يشغلني عن ربي.

- وماذا أصنع يا حبيبي؟ سأنصرف ولن أشغلك.

- لا تصنعي شيئًا، أنا من سيصنع.

بدلال قالت: وماذا ستصنع يا حبيب الفؤاد؟

- سأسلمك وديعة لرب العالمين.

ثم صرخ مناديًا خادمه غين، خذها واقطع رقبتها، ما ينبغي لمثلي أن يتزوج، لا زوجة لي ولا ولد.

تصرخ زوجته مستغيثة، ويحك يا منصور أنسيت حبك لي؟ وتمسكت بثوبه الصوفي الخشن فيركلها بقدمه ويصرخ في خادمه ليأتي مسرعًا.

يأخذها الخادم وبعد قليل يأتيه برأسها فيقبله ويبكي، ثم يلتفت إلى خادمه تأخرت يا غين.

- لم أتصور أن تأمر بقتل زوجتك يا سيدي، فهي حبيبتك وزوجتك وأم أولادك.

- صدقت يا غين لكن مثلي لا ينبغي أن يكون له زوجة أو ولد، ثم من أذن لك بالكلام؟ اقترب يا غين.

يبكي ويقبل الأرض بين قدميه، خادمك يا مولاي، وأنت أذنت لي بالكلام.

- اقترب، لن أقتلك سأعلمك الأدب، أخرج لسانك

يصرخ غين مستغيثًا ولكن الحاكم يمد يده فعلًا ويقطع لسانه، ثم يعطيه لغين في يده ويأمره بالانصراف.

ثم يخرج من مصلاه إلى ساحة القصر ليجلس مع بعض من المساكين يوزع عليهم العطايا ويأمرهم بالانصراف.

في المسجد الأزهر وبعد صلاة الجمعة يجلس في المحراب يعلم الناس أمور دينهم:

(أيها الناس إذا سمعتم اسمي فاعلموا أني أعلم الغيب، فاسألوني أجيبكم، وهابوني أنجيكم من عذابي، أيها الناس إذا سمعتم اسمي فقوموا واقفين احترامًا وتقديرًا لسيدكم وواهب نعمكم)

علمت أن حوانيتكم سرقت بالأمس، فمن كان له حانوت مسروق فليقم وأدله على ماله.

فيقف أحدهم فيقول أموالك عند الحسن المسكين الجالس في آخر المسجد على اليمين، قم إلى داره تجد مالك هناك، فإن وجدته أحضره إليَّ.

وهكذا قام كل واحد من أصحاب الحوانيت فيدلهم على أموالهم ثم انصرفوا جميعًا وبعد قليل عاد كل منهم ومعه ماله كما أخبره الحاكم، ولم

يعلم أحد منهم أن هؤلاء المساكين السارقين هم أنفسهم من كان الحاكم يوزع عليهم العطايا في مساء أمس وأمرهم بسرقة الحوانيت.

أمر الحاكم جنوده بقطع رقاب كل سارق، ثم هز رأسه في أسى قائلًا:

- ألم أقل لكم أنني أعلم الغيب.

قامت جموع الناس مهللة مكبرة، فرحين بما وهب الله حاكمهم من علم وسعة اطلاع وإن كان فيه بعض المبالغة، لكن يبقى الدين لله.

ما إن عاد الحاكم لقصره حتى جاءته أخته ست الملك تطلب لقاءه.

- أختي الغالية ما بك؟ يبدو عليك الغضب!

- ماذا تفعل يا منصور؟ ماذا تقول للناس؟

- أقول الحق وأرشدهم إلى الصواب.

- أي حق؟ هل تعلم الغيب؟ هذا كلام تخدع به هؤلاء العوام، أما أنا فلا .

- تحسبينني مخادعًا؟! سأسامحك لجهلك.

- يا منصور كل من سلك طريق الضلال وقع فيه، وأنت الآن تسعى فيه سعيًا وإني لك ناصحة.

- احتفظي بنصحك لنفسك يا ست الملك، فعما قريب ستعرفين الحق وتعودين إليه.

ثم تركها وقام ليجلس على مصلاه بنفس جلسته المعتاده يبكي ويتضرع

(يا رب يظنني الناس مجنونًا، وأنت وحدك تعلم سريرتي، يا رب أعطيتني من علمك وأصبغت عليَّ من فضلك فدلني على الطريق إليك يا رب دعني أنظر إليك).

وفجأة قام المنصور في ظلام الليل الدامس، وركب حماره وترك جنده وقصره وماله، وتوجه بالحمار إلى جبل المقطم، استيقظت ست الملك تبحث عن المنصور فلم تجده ولم يجده أحد، لكني وجدته بعد ألف عام يجلس في مسجد الحاكم بأمر الله، بشارع المعز، ويسمي نفسه الشيخ منصور.

جلست في غرفة الشيخ منصور لا أجد كلامًا يستوعب كل ما قيل وما رأيت، وهو يجلس مطالعًا القبلة يهز رأسه ويتمتم بالدعاء، يمسك بيده مسبحة طويلة وكأنني غير موجود.

قمت صارخًا فيه:

- ويحك، ما هذا؟! كيف فعلت بالناس كل ذلك؟!

- وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

- أنت نفسك اخترت طريقك ولم أرغمك على شيء (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي)

- أنا تحركت لأبحث عن شيء أحبه.

- أنت تحركت لترضي فضولك عن خلق الله، كل وجه تراه يحمل خلفه حياة بائسة، هذا يسعى على لقمة عيشه، وذلك يرعى أباه المريض، كل يجري في حياته ليعيش، وأنت أردت أن تعرف عن كل الناس، وهذا لا يعنيك.

- لكن الكتاب كان للباحثين عن الوجوه.

- الكتاب لأمثالك وأمثالي، نحن لا نختلف عن بعضنا كثيرًا.

- لا، أنت ادعيت الأولهية.

- وأنت أضفت لنفسك بعض صفات الإله.

- كاذب، لم أفعل.

- بل فعلت، نصبت نفسك حاكمًا على خلقه وأنت واحد منهم، لا حكم لك على أحد من خلق الله.

- أنت قتلت.

- وأنت أيضًا قتلت، أتحسب القتل إزهاق النفس؟ القتل يا عزيز كسر الخاطر وخداع المحبوب، وترك الأب والأم بلا ونيس أو رعاية، القتل يا عزيز كل فعل يكسر الروح. كم روحًا كسرت يا عزيز؟

- كل هذا تقوله لتقنع نفسك أن لك أشباها في الأرض.

يضحك الشيخ منصور.

- نحن كثر يا عزيز، مهما اختلفت الأسماء وطريقة الفعل لكن يبقى هناك عامل مشترك.

نحن نعلم الأصلح للناس وندفعهم إليه دفعًا.

- أنت مجنون.

- قيل لي هذا كثيرًا.

- وفاطمة؟

- استأجرتها لتقنعك بالقدوم إليَّ.

- وحبها؟

- تعليمات تنفذها.

- والانتقال عبر الزمن؟

- أنت ساذج جدًّا، لا أحد يقدر على هذا.

- لكني كنت أنتقل.

- هذا ما تقنع به نفسك، ألم أقل لك كلها اختياراتنا ونحن فقط ننفذ ما نختار.

- أنت لا ينبغي أن تحيا.

- وهذا أيضًا قيل لي كثيرًا، لكني أحيا وأعيش بأي اسم وفي أي وقت.

وأخيرًا قررت الهجوم عليه، سأقتله وليكن ما يكن، قمت بثقل جسمي فوق جسمه العجوز، أمسكت برقبته أخنقه صارخًا مت أيها اللعين، وهو يضحك ملء السماء والأرض.

- حتى خطيئة القتل فعلتها يا عزيز، أكمل، أكمل يا عزيز، أزهق روحًا وأعدها إلى خالقها؛ فقد سئمت الحياة مع الأغبياء.

لحظات مرت وجثة منصور أمامي لا أدري كيف أتصرف، صرت أبكي وأضرب وجهي بكفي، ويحي!، ماذا فعلت؟ قتلت نفسًا مسالمة! كان محقًّا، أعطيت نفسي ما لا حق لي فيه، حكمت عليه ونفذت الحكم، وما أنا إلا بشر مثله، لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا.

حاولت حمل الجثة لكني لم أستطع، أين أذهب بها؟ وماذا سأقول للناس؟!.

لحظة، لا أحد يعرف بوجود الشيخ منصور سواي، لا وجود له بين الناس، حتى غرفته لا يعلم مكانها أحد، حسنًا حسنًا، اهدأ يا عزيز، دع كل شيء كما هو وانصرف في هدوء، لكن قبل أن تقوم صل ركعتين لله تتوب فيها عن ذنبك الذي فعلت، أنت لم تقصد قتله بأي حال.

قمت وأزحت الجثة بقدمي بجوار المصلى وقفت واستحضرت الخشوع والتُّقى وصليت ركعتين وضعت فيهما كل خشوع عرفته يومًا، وكل تقى أحسسته يومًا، القتل خطيئة وأنا من المخطئين.

خرجت من الغرفة أمشي بهدوء؛ فأنا الآن من التائبين، كلنا نخطئ، كل إنسان يخطئ، كفاك جلدًا لذاتك يا عزيز.

قادتني قدماي إلى حارة برجوان، في بيت صغير بأحجار قديمة وشُرَفٍ ذات أخشاب محلاة متشابكة، وباب خشبي قصير يبدو عليه قدم الزمن وعبق التاريخ، في مخزن ملابس يدخل العمال يحملون وبعضهم يخرج، حركة دائبة، انحنيت داخلًا لمقابلة فاطمة.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام أي خدمة؟

- لا، لكني سأعود لبلدي، وأردت وداع فاطمة.

- المعلمة فاطمة ماتت، أنا ابنتها.

- صرخت ماتت؟! متى؟ لقد كانت هنا بالأمس.

- سلمك الله، أمي ماتت منذ عشر سنوات.

- وأين خالك علي؟

- خالي مات أيضًا منذ خمس عشرة سنة، هل كنت تعرفهما؟

قمت واقفًا أضرب كفًّا بأخرى، لا أرد على أحد، صارخًا بين الناس سبحانك ربي.

توجهت إلى المسجد الأزهر، غسلت وجهي وتوضأت، وجلست لأستمع لدرس الشيخ، كان جالسًا هادئًا مطمئنًا، قال:

درسنا اليوم عن حديث رسول الله (من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه)

انتهى الدرس، عدت إلى محطة القطار متوجهًا إلى بيتي، أغمضت عيني قائلًا لنفسي، دع الخلق للخالق.

المراجع

1- وفيات الأعيان أنباء أبناء الزمان (لابن خلكان)

2- سيرة القاهرة (ستانلي لين بول)

3- تاريخ مصر في العصور الوسطى (ستانلي لين بول)

4- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (محمد عبد الله عنان)

5- الدولة الفاطمية (علي الصلابي)

6- تاريخ الدولة الفاطمية (محمد جمال الدين سرور)

❋ ❋ ❋